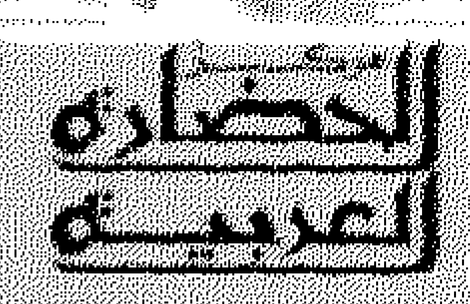
فــؤاد قنديل

الحمامة البرية

رواية



اهداءات ٢٠٠٣

الأستاذ/ فؤاد قنديل

اتحاد الكتاب - القاهرة

إلى المفكر والعالم الجليل

الأستاذ الدكتور

اسماعيل سراج الدين

تقديرا لنموذج حضاري نبيل

وعطاء وافر ومميز

وشخصية مرموقة

وثقافة متدفقة

مع بالغ مودتي

د. [illegible]

الحمامة البرية



- مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة ، تستهدف المشاركة فى استنهاض وتأكيد الانتماء والوعى القومى العربى، فى إطار المشروع الحضارى العربى المستقل .
- يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل الثقافى والعلمى مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات ، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة
- يسعى المركز من أجل تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب ، ونشره وتوزيعه .
- يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه .
- الآراء الواردة بالإصدارات تعبر عن آراء كاتبيها ، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية .

رئيس المركز

على عبد الحميد

مدير المركز

محمود عبد الحميد

مركز الحضارة العربية

٤ ش العلمين - عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات - القاهرة

تليفاكس : 3448368 (00202)

E.mail: alhdara_alarabia@yahoo.com
alhdara_alarabia@hotmail.com

فؤاد قنديل

الحمامة البرية

روايـــــة



الكتاب : الحمامة البرية
رواية

الكاتب : فؤاد قنديل

الناشر : مركز الحضارة العربية

الطبعة العربية الأولى : القاهرة ٢٠٠٣

رقم الإيداع ٢٠٠٣/٢٥٣٣
الترقيم الدولى : I.S.B.N.977-291-432-8

الغلاف
تصميم وجرافيك : ناهد عبد الفتاح

الجمع والصف الالكترونى :
وحدة الكمبيوتر بالمركز
تنفيذ : صفاء الشريف
تصحيح : زكريا منتصر

نحن أنفسنا الفردوس

ونحن الجحيم

عمر الخيام

(١)

قبضت أصابعها الرقيقة الناعمة بقوة على يده بينما كانت الطائرة تجرى بحماس على المدرج استعداداً لمغادرة الدار البيضاء، آخر محطات رحلة العسل.

كان معهما بالدرجة الأولى بعض الأجانب، سألها: هل أنت خائفة؟

أجابته بسؤال: مم؟

- لا أعرف.
- ولماذا تسألنى إذن هذا السؤال؟
- لأنك قبضت على يدى.
- لم أتنبه لذلك.
- إذن أنت خائفة.
- هذه هى المرة العشرون التى أركب فيها طائرة.
- عشرة منهم خلال هذا الشهر.

ضحكت وتألق وجهها بالسعادة.. قالت:

- لم نركب الطائرة فقط.. ركبنا جميع وسائل المواصلات.. حتى الحمير.
- هل تذكرين متى ركبناها؟
- وهل مضى وقت طويل حتى أنسى!.. كنت أتمنى أن نبقى شهراً.. أليس اسمه «شهر العسل»؟

مرت به المضيفة الرشيقة فطلب منها أن تحضر لهما شراباً.. طلبت فدوى زجاجة بيرة، وطلب يسرى عصير المانجو.

ساد الصمت لحظة.

- حبيبتى

قاطعته :

- أعرف ما تعتزم قوله .
- ما هو ؟
- ستقول أرجو أن تكفّى عن تناول البيرة .
- هذا صحيح .
- وأنا أقول لك ليس فى أى وقت أشربها . . أحياناً عندما أكون سعيدة ومنتشية .
- وهل أنت الآن سعيدة ؟
- اقترب وأنا أعرفك .

دنا فقبلته ، تمهلت قليلاً ، وأخذت نفساً ثم قبلته ، وطالت القبلة حتى قطعتها المضيفة . . تناول كل منهما كأسه ، وعادا يتلاثمان إلى أن شعر ببرودة مفاجئة ، وتبين له أن فخذه قد شرب كوب العصير المهتز .

تحول يسرى إلى المسافرين الأجانب الذين يشاركونهما الدرجة الأولى . كانوا ينظرون من نوافذ الطائرة باهتمام ويتبادلون التعليقات . . لم يستطع متابعة ما يقولون .

سألته فدوى : لماذا سموا الفترة الأولى من الزواج شهر العسل ؟

قال لها : اقتربى وأنا أعرفك .

ضحكت وقالت له بدلال : لا يا سيدى . . أنا أعرفك إذا بدأت بالألف لا يمكن أن يوقفك شيء إلا عند الياء .

قال لها : لم تجيبى عن سؤالى . .

رشفت من كأسها رشفة وسألته :

- أى سؤال ؟ إن أسئلتك كثيرة .
- ملحوظة رائعة . . أنا أحب الأسئلة .

قالت بجدية : ميزة فيك ، لكنها قد تكون مرهقة لغيرك .

لمعت عيناه باكتشاف المقصود . . فقال :

- اطمئنى أنا لا أطارد ولا ألح ولا أشك أيضاً .
- رائع . . تأكد أن ما قلته مهم جداً فى تحقيق السعادة .

سألها : يعنيني جداً أن نتفق على معنى السعادة . .
رشفت من كأسها : حيرت الفلاسفة . . فمن نكون ؟
كان عليه أن يبحث عن إجابة مناسبة ، حاول أن يضع ساقاً على ساق ، فلم يتمكن ، اعتدل وقال :

- لدى كل إنسان حتى الشحاذ واللص والعالم والنبى فكرة عن السعادة أو يجب أن يكون لديهم .
- ولماذا يتعين أن تكون هناك فكرة عن السعادة ، عليه فقط أن يجتهد فى الحياة ويعمل ليوفر لنفسه ولمن حوله أسباب الراحة .
- حتى هذا كله يحتاج إلى فكرة ، لأن الفكرة تمثل الهدف الذى سوف يسعى فى اتجاهه . . لا بد من رسالة واتجاه ثم عمل .
- قل لى أنت ما هى فكرتك عن الست سعادة ؟

انتهى من عصير المانجو ، تمهل قليلاً ثم قال :

- الحقيقة أن الأديان تحدثت فى هذا كثيراً وأوضحته وخاصة الدين الإسلامى ، وأخص الخصوص أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، لكن المشكلة أن البعض أصبح يشعر بأنها محاضرة إذا تحدث مستعيناً بأقوال النبى ، فى حين أنه يرضى إذا استحضر محدثه أقوال الفلاسفة الغربيين من فولتير وهيجل وكانت إلى رسل وسارتر .
- خش فى الموضوع يا أستاذ .
- لذلك . .

قاطعته قائلة : لا تنس أنى أريد رأيك أنت .

- أرى أن السعادة أساسها الأول الرضا والعمل والحب .

اندفعت تقول : والمال ؟

- المال مجرد وسيلة .

قالت بسخرية : مجرد وسيلة .

- نعم مجرد وسيلة . . وسيلة هامة طبعاً .

- يبدو من حديثك أنها ليست هامة.
- هامة جداً، والسبيل إليها العمل.
- ليس كل عمل قادر أن يحقق المال المطلوب للحياة.
- هنا يأتى الرضا والإيمان بأن الرازق موجود.
- واضح أنك مذاكر.
- أنا لازلت فى مرحلة التجارب، لكن نظريتى حتى الآن صائبة.
- قلت الرضا والعمل والحب!
رد بثقة: نعم.
- هل الترتيب مهم؟
شرد بعض الوقت وهو يحس بصعوبة الترتيب، لكنه فى النهاية قال:
- العمل أولاً فالحب ثم الرضى.
- ولماذا لا يكون الحب أولاً؟
- لأن المال كما قلت هو الذى نحتاجه لنعيش.. فلابد من العمل، بالإضافة إلى أن العمل كرامة، ورياضة وإثبات للشخصية، تخيلى إنساناً بلا عمل.
دَنَتْ حتى لمست خده، وهمست:
- كلمنى عن الحب
تطلّع إليها، كانت تحدق فيه بعينيها القططية التى يعشقها ويخشاها..
- الحب.. الحب هو روح الحياة، والذى لا يعرف الحبَ ميت وسط الأحياء.
تنهد وقال متئداً:
- أنا.. أنا لا أستطيع أن أعمل بلا حب، ولا أقدر على السير بدون حب، لا أتذوق الطعام بدون حب، لا أصادق دون حب، لا ألعب دون حب، لا أفكر بلا حب، لا أنام دون حب، ولا أغضب دون حب، ولا أعيش إلا بالحب.

- أرجو ألا يكون كلام الليل..
- نحن بالنهار.
- لكن فى شهر العسل.
- هل أنا على صواب أم على خطأ؟
- أنت.. منتهى الصواب إذا لم تتغير يا حبيبى.

دنت منه وقبلته.. وعادا يتلاثمان.. كان وجهه للنافذة ولما توقفا عن القبلات ليلتقطا أنفاسهما.. قال لها:

- انظرى إلى السحب.

صرخت فرحة: الله.. قطن أبيض منفوش.. جبال من القطن.. انظر.. هذه السحابة تشبه الفيل بالضبط.

أخرجت الكاميرا.. والتقطت الصور، ودعت المضيفة كى تلتقط لهما عدة صور.

قالت: انتهى الفيلم الخامس.

رد قائلاً: عقبى للفيلم رقم خمسمائة.. يا عروسة.

وضعت رأسها على صدره ومضت تفكر فى الأيام الجميلة التى قضتها معه.. يبدو أنه هو الآخر كان دون اتفاق يفكر فى نفس الشىء.. يحاول أن يستعيد لحظات الجمال والمتعة واللذة التى نهلا منها بلا حدود وبلا توقف ودون أى تفكير فى سواها.. الروعة فى هاييتى، والجمال فى جزر الكنارى، والبساطة والأصالة فى الدار البيضاء، والنظام والنظافة فى باريس ولندن.. الحيوية والانطلاق فى فينيسيا وبرشلونة.

حاول كل منهما أن يحفر فى ذاكرته لحظات الحرية والمتعة والجمال.. قبل أن تصل قدماه إلى القاهرة وينحشر فى زحامها، وتأخذه عجلة العمل والناس والأهل.. حاول كل منهما حتى لا يصبح الأمل فى تكرارها مجهولاً وغامضاً.. تمنت.. تمنت أن تتكرر هذه الزيارات والرحلات البديعة، وأخذ هو على نفسه وعداً سرياً أن يحقق هذه الأمنية التى لم يسمعها منها، ولكنها كانت فى الوقت ذاته رغبته - ولو

مرة كل عامين، مثل هذه الرحلة كفيلة بتجديد النشاط وتغيير الدماء وشحن البطارية بوجوه جديدة، ومعايشة حياة غير الحياة.. وتكون العودة إلى الحياة بشوق وعزم.. تكون الحياة.

سألها: هل نمت؟

قالت له: لا.

سألها: فيم تفكرين؟

قالت: في مصر، أحاول أن أتخيل منزلنا.

- ألم أحدثك عنه؟

- لا.. لم تحدثني..

- يبدو أنك نسيت، على أية حال أعتبره أحد المفاجآت، وسوف يسرك إن شاء الله.. تذكرين أنك كنت مشغولة جداً خاصة برحلتك لتغطية سفرية الرئيس لعدة دول.

- لقد أخذتني من الدار للنار

- وما رأيك في النار؟

قبلت خده وقالت: أحلى من الجنة.. حلم جميل.. آن له أن ينتهي ولابد أن نصحو.. فأين ستهبط بنا طائرة الأيام المقبلة.

- ستهبط بك الطائرة أمام فيلا في آخر شارع أبو الهول.

جاءت المضيفة والمضيف بعربتهما يحملان الطعام.. وضعاه أمامهما.. وشرعا يأكلان.

استأنف يسرى: مبنى أبيض جميل مكون من دورين.. حوله حديقة، مساحتها تزيد على ألف متر.. المباني تشغل فقط نحو ٣٥٠م.. الدور الأول يتكون من جانبين.. الأيمن.. أوله المطبخ ثم حجرة الخادمة وحمّام وبعده غرفة المكتب، وعلى اليسار صالة استقبال كبيرة تتسع لأنتريه وسفره، وبجوار السفرة سلم خشبي على شكل نصف دائرة يصعد إلى الدور الثاني حيث توجد ثلاث غرف نوم وحمّام كبير، يشغل المساحة التي تعلو حجرة الخادمة والحمّام المجاور لها في الدور الأرضي، المكتب له

بلكونة على الحديقة وكذلك صالة الاستقبال.. وفى الدور الثانى هناك بلكونة لكل غرفة.. وهذه الغرف.. لنا واحدة، وللأولاد إن شاء الله واحدة، وثالثة للضيوف.

تقوم على الخدمة فى الفيلا.. بنت مخلصة وعفية وماهرة جداً اسمها دائم، ويساعدها نصف النهار رجل مؤدب اسمه «خشبة» لشراء المستلزمات، وهناك محروس الجناينى وهو الخفير فى الوقت نفسه.. وهذه هى البداية.. يتم التغيير والإضافة حسب التجربة والحاجة.

أشعلت سيجارة وسألته: ولماذا اخترت الفيلا فى أبو الهول؟

أجاب بنبرة فرح: لأكون بالقرب منه.

- من أبيك؟
- لا.. من أبو الهول.
- أبو الهول!
- نعم.. ألم أحدثك عن صداقتنا؟
- لقد حدثتنى.. أظنه كان معك فى المدرسة.
- لا يا فدوى إنه أكبر منى بكثير
- هذه معلومة جديدة..
- كما أن الفيلا قريبة من المصنع.. ومكان صحُى، وقليل السكان.. حتى الآن على الأقل.

سكت لحظة ثم استطرد:

- عموماً.. اطمئنى.. سوف تجدين كل ما يرضيك.
- أتمنى ألا يكون البيت مؤثراً بالسلب على عملى بالتليفزيون.
- على العكس.
- أنت تعرف كم أحب عملى كمذيعة، وأود بعد هذه الإجازة أن أنطلق فى مرحلة جديدة من البرامج.
- المهم إن..

سكت فجأة ليستمع إلى صوت قائد الطائرة يطلب ربط الأحزمة

والامتناع عن التدخين استعداداً للهبوط فى مطار القاهرة، أطفأت سيجارتها بعد أن سحبت نفساً ممتداً، وربطت حزامها وربط حزامه.

استأنف يسرى حديثه بحماس:

- المهم ألا ننسى أن الزواج شركة، والشركة لا يهددها إلا أمران.. تجاوز الحدود فى لغة التخاطب وسوء الظن.

- هذا كلام مدارس.

- أنا أريد أن نبقى معاً إلى نهاية العمر يا فدوى فى سعادة.

- وأنا أيضاً.

- تذكرى إذن ما قلته.

- تذكر أنت أننى لا أحب القيود.

- لابد للحياة من قيود، ولو فى بعض الأمور وبعض الظروف.. النهر له ضفتان.

نفخت الهواء وقالت مهددة : يسرى!

قال بهدوء: فدوى.

أعادت قولها: يسرى.

قال وهو يقبلها: حمداً لله على سلامتك يا عروسة.

***

(٢)

على باب المطار.. كان الأهل والأصدقاء فى استقبال العروسين.

لقد أرسل برقية بموعد وصولهما إلى أخيه الأكبر فائق عقيد الشرطة ولأخيها ساهر، لكنه لم يتصور أن يقابلهما كل هذا العدد.

السيد طربوش رئيس عمال المصنع، الدكتور سيد والد فدوى وشقيقها رمزى، والد يسرى ووالدته، ابن عمه نزيه رئيس حسابات المصنع، صديقه الأثير صلاح علام صاحب دار الفراعنة للعاديات والبردى، أخته كوثر وخطيبها، نور الهدى وزوجها، شقيقه الأصغر زياد المهندس الزراعي الذى سار على درب أبيه، عدد كبير من أصدقائه وأصدقاء فدوى وزملائها فى التليفزيون.. مذيعين ومذيعات.. مصورون وصحفيون.. الأصوات تتعالى وتتقاطع.

كانت صالة الاستقبال فى الفيلا مملوءة بالكراسي.. فى الوسط مائدة كبيرة عليها العصائر والحلوى.. عزفت الموسيقى فور دخول العروسين.. التقطت لهما الصور وجلس الأحباب حولهما لمدة نصف ساعة لتحيتهما وتقديم التهانى والهدايا. كان يسرى ينظر إلى من حوله فى فرح ويحدث نفسه بين دقيقة وأخرى: ما قيمة الإنسان بلا إخوة أو أحباب.

رأى د. سيد المهدى ومتولى السروجي والدا العروسين أن ينتهى البرنامج، وأن يُترك العروسان فى بيتهما الجديد ليبدآ أول أيامهما فيه، خرج الجميع بعد تقديم التهنئة والتمنيات الطيبة بالسعادة، كان فائق آخر الراحلين بعد أن سلم يسرى مظروفاً مغلقاً.

صعد العروسان، وبدأت هانم الخادمة مع خشبة ومحروس الجناينى تحت إشراف زياد فى إعادة كل شيء إلى نظامه.

ربما دون أن يتنبه أحد، بسط المساء خيمته على كل أطراف الدنيا فى

هدوء وثقة.. بعد نصف ساعة تقريباً نزل العروسان للعشاء.. قدم يسرى الخادمة إلى فدوى وامتدحها، بدت هانم مبتهجة ربما لأنها تعمل في خدمة سيدة متعها الله بقدر كبير من الجمال.. ويسعدها أن تلبى طلباتها في أى لحظة بمنتهى الرضا، همست هانم: تبارك الله فيما خلق.

كانت فدوى تبدو فاتنة حقاً وهي ترتدى منامة بيضاء حريرية، وشعرها يتجول حولها في ثورة، يقفز فوق جبينها ويلتف على رقبتها، ثم يمس وجنتيها شديدتي الحمرة، وبشرتها الناعمة التى تنبض بالصحة والشباب.

إلى جوارها يسرى يتأملها ويتصبب إعجاباً وحباً لجوهرته الغالية.. يحتشد بفكرة أنه امتلك ثروة حقيقية.

أحضرت هانم العشاء طبقاً في إثر طبق، وهي تنظر إلى عيني فدوى في وجل، متوجسة من رأيها الأول، متمنية أن تفقد عينيها أو أى عضو من جسدها في سبيل أن ترضى هذه الملكة عن طعامها.

وقفت أمامهما تنتظر على أحر من الجمر، وهي ترى السيدة تتناول رشفة من كوب العصير، وسلخة من لحم الديك الرومي، ولم تمس المكرونة البشامل أو طاجن البسلة أو محشى ورق العنب، ولا أقراص البطاطس باللحم المفروم ولا الملوخية التى يهواها كل الناس.

كانت فدوى تجوس خلال الأطباق العديدة بناء على خطة محددة ودقيقة.

العصير لا بأس به، ولحم الديك خارج نطاق العبث الإنسانى. بدأت بعد أن تسلل إلى أعماقها قدر من الثقة تمد يدها بالشوكة فتلتقط مكرونة واحدة، تستخرجها من تركيبتها المسبوكة والمعقدة.. لاكتها في فمها، وقلب هانم يتحرك مع حركة الفم ينتظر النتيجة، ولم تتأخر فدوى كثيراً في إعلان النتيجة، إذ هزت رأسها راضية.. وراقبها يسرى من تحت لتحت دون أن تلاحظه، لأن رضاها عن هانم سيسعده ويسهم في بدء صفحات الاستقرار.

تألق الفرح على وجه هانم، وتمنت أن تستمر التجربة حتى النهاية بدون إزعاج، وأن يكون أول اختبار مع هذه السيدة بالذات مشرفاً.

قال يسرى: هذا هو طعام هانم الذى تجيد صنعه وتسيء تقديمه.. ما رأيك؟

أسعد هانم جداً سؤال يسرى، لأن الإجابة عليه ستكون بالكلام وليس بالملامح.

قالت فدوى ويدها تقترب بالشوكة من المحشى:

- معقول..

أسرع يسرى يقول:

- إذا كان لك بعض الملاحظات.. قوليها.. هانم تتعلم بسرعة.. إنها تربية أمي.

هزت فدوى رأسها قائلة:

- طبعاً.. مع الوقت..

عادت تأخذ سلخة من لحم الديك وأتبعتها بإصبع من المحشى.. وكل قطعة طعام تدخل فمها، كانت تسرى فى جسد هانم وقلبها وعقلها صحة وقوة وثقة، وأمل فى استقرار وهناء مع هذه الجميلة.

فجأة مسحت فمها، وتناولت إصبعاً من الموز وتفاحة، ثم أشعلت سيجارة.. وبقى يسرى يأكل بشهية، بينما كانت فدوى تتأمل الأنتريه والسفرة والجدران وألوانها والستائر والصور .. أدهشها أن ترى صوراً لصغار الحيوانات.. أشبال الأسود، وصغار الجياد والحمير.. أفيال صغيرة.. كتاكيت وبط صغير.. نمور صغيرة وقرود، وأطفال.. ومناظر طبيعية، وصورتين صغيرتين «لأبو الهول»، وإلى جانبه يسرى فى صورة، وفى الأخرى يسرى وشخص آخر رأته فى حفل الاستقبال عصر اليوم.. سألته عنه..

قال: صلاح علام.. صديق قديم وخريج آثار، والآن هو صاحب محل كبير للآثار المقلدة وهدايا السائحين وورق البردى، بينه وبين

«أبو الهول» خمسون مترا.. إن شاء الله سأعرفك به.. شخص رائع..
- لم أكن في حاجة إلى كل هذا، فأنا أعرف صلاح، لكنه في هذه الصورة يبدو صغيراً ومختلفاً.

انتهى من طعامه.. جلس بالقرب منها على كنبة الأنتريه.. أدار (إنت عمرى)، لأم كلثوم، وفتح المظروف فوجد به قسيمة الزواج ومجلات وصحفًا بها صور ليلة الزفاف. أخذا يقلبانها ويبتسمان في سعادة.

عرضت عليهما هانم أن تفتح التليفزيون.. أسرعت فدوى تقول: برافو عليك.. كيف نسيت؟

أغلق يسرى الكاسيت وهو يعتذر لكوكب الشرق متابعاً ما يعرضه التلفزيون..

قبّلها عدة مرات، لكنها كانت قبلات في الأغلب خاطفة، لأن هانم أمامهما في المطبخ.. قالت له وهي تبتعد بوجهها عن مرمى قبلاته:
- أنت تحب الخطف.

دعاها للصعود.. طلبت أن تطوف بالفيلا كلها.. رافقها في طوافها، وقبّلها طويلاً في كل موضع.. حتى بلغا في النهاية حجرة نومهما.. أحاطها بذراعيه، هجم عليها بالقبلات.. تخلصت منه برقة.. قالت: أنا مجهدة ونفسي أنام.

رفض بشدة.. توالت المكالمات التليفونية.. كان الكثير منها دعوات لسهرة في مساء الغد.. أخيراً رفع السماعة وضمهما عالم الحب الجميل.

كان الجسد المسبوك المتوهج والمتنمر.. منطرحاً على الفراش الوردى الناعم، تثاءب ودار في الكون دورة.. فإذا المجنون المستهام يتخلى عن كل شيء ويجعل الفراش الساكن مسرحاً تجرى عليه عملية فناء العاشق في المعشوق، مضى يتسلق جبالها والهضاب، ويأكل من ثمرها اليانع ويرتشف من رحيقها العذب، وكلما همدت وخمدت قال لها:

- لا تنسى أنها أول ليلة مصرية لنا بعد الزواج، ولا بد أن تشهد مصر أننا تزوجنا، كما أننا يجب أن نحتفل بهذه الليلة ونحفرها في التاريخ.. قالت له: التاريخ لم يعد يحتمل كل هذا الحفر.

مضت أسماك الشهوة تتقلب في النهر الوحشي العذب الذي ينبع من منابت الليل المستبد، ويمضي متدفقاً ليصب كل مياهه في بحار الفجر الفضية.. مضت أسماك الشهوة. مضت .. مضت..

أخيراً.. سقطت فدوى منه في بحر النوم.. لقد تأكد له أن الجمال الأنثوي والجسد المشتعل هو الزورق الوحيد الذي يفضي إلى جنان السعادة، وأنه لا أمل أن يتساوى الرجل بالمرأة، أو تتساوى به، إنها مخلوق مختلف تماماً.

تساءل يسري: من أي المواد خلقت النساء، ومن أي المواد خلقت فدوى؟ أي طين هذا الذي تشكلت منه، هذا ما يجب أن يبحث فيه العلماء، بدلاً من أن يشغلوا أنفسهم بغزو الفضاء.

حاول أن يردد مقطعاً من أغنية الأطلال «هل رأى الحب سكارى مثلنا».

أخيراً.. حط الطائر وراح في سبات ناعم أنقذه من آثار الوجع البهيج.. الوجع البهيج.

(٣)

قبّلها لتصحو، لكنها أمعنت فى الغياب، وزادت، فاستدارت ونامت على بطنها ودفنت وجهها فى الوسادة.

فكر أن يعرى ظهرها ويقضم لحمها المرمرى، لكنه أشفق، وكثيراً ما كان يرحم النائم فلا يوقظه مهما كانت الأسباب إلا فيما ندر. كان على قناعة أن النوم كالحب سلطان، وكالحب أيضاً للإنسان حياة ومعنى.. وسحره فى تجديد البدن لا مثيل له.

أغلق عليها الباب وهو يحدث نفسه.

- لا منافس للماء والنوم.. كل شيء يهون إلا غيابهما.

دخل الحمام.. ونام فى البانيو.. كان يود أن تصحو لتشاركه الحمام والعرى الجميل والعبث والتقلب فى الماء.. هل يمكن أن يتسع البانيو لهما معاً؟.. سوف يجرب غداً.

كان جائعاً جداً فرضى أن يتناول الفطور وحيداً. لم يكن يميل للبن.. لكنه شرب منه كوباً كبيراً وذاق من عسل النحل والقشدة والتهم بيضتين مسلوقتين وبعض الفول والجبن الرومى.

حملت هانم الشاى إلى المكتب حيث كان هناك يقلب فى بعض الأوراق.. كان على المكتب ديوان أشعار حافظ الشيرازى.. أحس براحة عندما وقعت عيناه عليه، وتذكر أن هذا الكتاب العزيز أخذه من أبيه ولم يرده، ومنذ شهور استعاره ابن عمه نزيه وأعاده إليه قبل ليلة الزفاف.

قلّب صفحاته لحظات.. وقرأ بعض الأشعار وتوقف عند هذه الأبيات:

شفة حبيبى

- إن شفة حبيبى، ياقوته، ظمأى إلى الدماء

وأنا - من أجل رؤيتها - أضحى بالروح، وهذا هو عملى وشغلى الشاغل

- من رأى تلك العين المكحولة بالسواد، وهذه الأهداب الطويلة المديدة من رأى كيف يسلب الحبيب القلوب، وهو مع ذلك ينكر أحوالي..؟!
- فيا حادى العيس !! لا تحمل رحلى إلى الباب، فعلى قمة هذه الجادة يتشعب الطريق الرئيسى، إلى منزل حبيبى وداره
- وأنا عبدٌ لحظى وطالعى، فقد تملكنى فى قحط الوفاء عشق هذه «النورية» المخمورة الرأس..!!
- وقارورة عطر الورد، وذؤابة الحبيب التى تفوح بالعبير
- لا تطردنى أيها البستانى، عن بابك، فأنا كالنسيم وماء روضك، من دموعى الحمراء التى تشبه زهرات الرمان.
- ولقد أمرت لى عين الحبيب بشربة من الحياة والأمل ممزوجة بماء الورد من شفته الندية.

وكانت عينه الشبيهة بالنرجسة الغضة هى الطبيب لقلبى العليل.

استدرجته الكلمات فى شرنقتها وذاب فيها ومضى يرتشف من رضابها، وقد أحس أن الشيرازى يدرك تماماً ما يحس به.

لكنه أفاق من نشوته عندما اقتحمه صوت هانم:

أحضر خشبة الصحف والمجلات؟

اجتهد أن يفهم ما تقول، ولما استوعب الخبر اندفع قائلاً:

هاتها بسرعة.

أغلق الكتاب وانتقل إلى الشرفة.. أطل على الحديقة بسرعة، ولم يجد فى النباتات والورود ما يلفت نظره، جلس ومدد ساقيه. أخذ فى مطالعة الصحف.. جلست القطة بوسى على سور الشرفة تنظر إليه.. عثر على بعض العناوين التى تناولت زواجهما.. نجمة الشاشة الصغيرة فى قفص الزوجية.. «فدوى المهدى» أخيراً تتزوج صديق الطفولة..

المكالمات التليفونية بدأت تنهمر من زملاء وزميلات فدوى ومن المعجبين والمعجبات والصحفيين وبعض موظفى الإذاعة والتليفزيون، كان يعتذر لنومها، ويعدهم بأنها ستكون جاهزة فى المساء لتتلقى

مكالماتهم .. نسي أنهما في المساء سيكونان في سهرة لم يحدداها بعد.
اتصل به السيد طربوش وحدثه عن أحوال المصنع، واتصل به ناجي شلتوت المرشد السياحي ابن إبراهيم شلتوت الذى اشترى منه المصنع، يبارك الزواج ويحمد الله على سلامته.

قال: كنت أظن أن المصريين توقفوا عن القيام برحلاتهم السياحية خارج مصر؟

ابتسم يسرى وسأله: ماذا تقصد؟

- أقصد أن مناظر مصر الطبيعية وقراها أجمل بكثير من الخارج.
- ألا ترى أن مجاملتك لمصر زائدة قليلاً؟
- لا تنس أننى أعمل في المجال، وكلامي .. نابع من تجربة وممارسة.
- أنت تروج فقط لنفسك ولأمثالك.
- صدقني .. المستقبل لمصر.
- أنت قلتها .. المستقبل .. وأنا لا أتحدث عن المستقبل أنا يا أستاذ ناجي بحثت عن شهر عسل بدون إزعاج.
- كان بالإمكان أن ترجع إليَّ .. أُعد لك برنامجاً لفترة معينة فى أماكن خرافية.
- قل هذا للغرباء .. أما أنا فلا .. السياحة الحقيقية فى مصر تحتاج إلى سنوات طويلة .. وغلطتكم أنكم تحسبون السياحة، مناظر طبيعية
- لسياحة يا ناجى بك أولاً معاملة.
- المصريون كما تعلم مشهورون بالكرم.

انفجر يسرى ضاحكاً.

- أنا مصرى يا رجل ولست خواجة .. أنت وغيرك يعيشون فى أوهام صفات الكرم، وخفة الدم والذكاء، صحيحة، لكنها زائدة عن الحد وتبدد الطاقة، وبالتالى تنتقل إلى الضد ..

قاطعه ناجي: لا يا باشمهندس .. إلا صفات المصريين، الكل يعلم عنها الكثير .. شوف الفراعنة.

اندفع يسرى يقول : الفراعنة قضية أخرى . . أما اليوم فالاحترام غير موجود والنظام غير متوفر والقذارة فقط هى المتوافرة . والقيود والروتين أيضاً . . أنتم تنظرون إلى السياحة بوصفها الهرم وأبو الهول والأقصر . . لا . . المعاملة أولاً . . مصر حقاً بها ثروة ، لكن . . الناس لازالت تجهل معنى السياحة . . مثلها مثل الديمقراطية ، البعض يتصور أنها فى مجلس الشعب فقط . . الديمقراطية يجب أن تكون فى الشارع . . .

فوجئ يسرى بيدى فدوى على كتفيه ، انحنت عليه . . قبلته ، غمرته بشعرها فاستطرد : خلاصة القول أن إحساس المصرى بالجمال محدود ، وعندما يزداد سيأتى الكثير من السياح . لا تنس . . الإحساس بالجمال ، وشكراً جزيلاً على تليفونك يا ابن الغالى . . سلام .

(٤)

طلبت إليــه أن يجلس فى الســرير إلى جــوارها.. يقــرأ وهى تريح جسـدها المنهك لحظات، وما لبثت أن نامت.. لم يجد يسرى رغبة فى النوم.. كيف ينام فى هذه الليلة البديعة!.

- إذن فدوى حامل.. ما أروع الخبر،وما أجمل الدنيا.. الشكر لك يا رب على أفضالك.. السفينة تمضى فى البحر بأمان والريح مواتية والخير كثير والأخبار الحلوة تتتابع بين حين وآخر.

غادر يسرى السرير، وغادر الحجرة ونزل إلى المكتب، فكر أن يخرج ليــرى شكل العــالم بعـد أن عرف أن فـدوى حــامل.. لا بد أن الكون سيتغير، ولا بد أن الولد سيكون مختلفاً.. مختلفاً تماماً.

ضحك عندما تذكر ما قاله له صلاح علام:

- سم المولود إذا كـان ذكراً أمحتب أو حورس أو أحمس، وإذا كان أنثى نفرتيتى أو إيزيس أو حتشبسوت

أخذ يفكر فى شكله ويتصور ملامحه.. يتمنى أن يكون مثل أمه، ولا بأس أن يكون مثل أبيه.. نظر إلى وجهه فى المرآة الكبيرة التى بجوار باب المكتب.. نعم ماذا لو كـان شكلى؟..المهم أن يكون رجلاً يعرف كيف يتحمل المسئولية.

حجرة المكتب مغلقة ومكتومة.. تقدم من النافذة يريد أن ينظر إلى الدنيا فى الظلام.. كان الظلام شفيفاً والدنيا تسبح فى الضوء الأزرق.. اهتدت عيناه إلى النور القادم من السماء. أصبحت الرؤية ممكنة.. فتح النافذة.. صافحت وجهه النسائم الطرية النقية.. تنهد وتجرع منها ما استطاع.. مؤكد أن هناك قمراً.. بحث عنه فى السمــاء المرصعة بالنجوم.. وجده أخيراً فوق رأسه

كنت وأنا فى نحو الثامنة.. وربما قبل ذلك، إذا حل المساء، أتطلع .

إلى السماء وأبحث عن القمر.. الخيمة المعتمة تنشق عن وجه أبيض.. صاف وجميل وهادئ.. أتأمله طويلاً، وأخاله ذا عينين وفم.. ينظر إليَّ ويتحدث.. كلمة.. كلمة، يسأل في صوت حنون ومحشرج:

- ألست أنت يسرى متولى السروجي؟

- نعم أنا.

- كيف حالك يا ولد يا يسرى؟

أبتسم، وأهز رأسي وأقول له: الحمد لله

أرفع يدى محيياً، وأحياناً كنت أسرع بصعود السلالم حتى السطح.. فوق الدور الرابع لأمسكه أو أقترب منه وأدقق في ملامحه، محاولاً البحث في وجهه عن أى شيء آخر غير العينين والفم.. وأحس أنه يعلو في السماء ويمضى بعيداً، فأهبط لأسير خلفه وعينى عليه، لا أفلته، ثم أتنبه إلى أنني ابتعدت عن بيتنا حتى بلغت نفق الجيزة، وأنني لابد أن أدخل النفق، وهو لن يدخل، بل سيواصل سيره على بساط السماء ومن حوله النجوم في موكب جليل.

قلت لفدوى بعد أن كبرت واستوت

- كنت وسأظل أحب القمر.

قالت والبسمة على وجهها: عالم فسيح من الجمال.

- لم يعد الناس يحبون القمر.

أسرعت أقول:

- إلا أنا.. أحببته عندما كان في السماء، وأحبه الآن وهو على الأرض.

سألتنى متعجبة:

- وهل أصبح يطلع بين الناس؟

- نعم.. منذ عاد مع والديه من السعودية.

تتفجر الدماء في وجهها، وتترقرق من حوالينا ضحكاتها الجميلة ومازال القمر بالنسبة لى هو القمر، حتى بعد أن وطأته أقدام رواد

الفضاء، وحطوا فوقه مناظيرهم ومحطاتهم العلمية، ووصفوه بالقبح والدمامة والصخرية وعدم صلاحيته للحياة.. إننى أتعامل معه لا بوصفه كياناً مادياً، لكن بوصفه رمزاً.. رمزاً للجمال الصافى البعيد. رمزاً للدلال العذب وهو يتوارى بين عباءات السحب، ليطل أحياناً بجانب رقيق ودائرى من وجهه فنسميه هلالاً.

القمر.. رمز للحبيب المسافر.. للنجى الأمين.. للحبيب الذى يؤنس قلبه فيض المشاعر، لكنه لا يبين ولا يعبر، يظهر أحياناً ثم ترغمه الظروف القاسية على الرحيل أو الغياب.. ربما تحول أسرته بينه وبين لقاء حبيبه، وتعتقله الأيام، ما يلبث أن يعود بعدها للبزوغ على استحياء.. النجوم تتبعه أنَّي ذهب، وأنا أيضاً.. سنوات وأنا موله به ومشغول.

كنت أرسمه على الكراسات والكتب.. وجه أبيض سمين ومستدير له عينان نجلاوان وفم صغير دقيق باسم، وبلا أنف ولا شعر ولا أذنين.. عينان للتأمل والدهشة.. للحب والكلام، وفم للقبل وليس لشىء آخر.

فدوى زوجتى الجميلة، حفيدة صادق بك مدير مصانع عبود للسكر وبنت الدكتور سيد المهدى عميد كلية حقوق القاهرة.

لن أصفها لأنى إذا وصفتها، فلابد أن أشبهها، هى أو بعض أجزائها بأحد أو بشىء، فبمن وبماذا سأشبهها، وهى مخلوق خاص، نال الحظوة وغاب قليلاً فى كف الزمن. وقال الخالق المصور له كن.. فكان على هذا النحو الذى يثير حفيظة الكثيرين ويلهب مشاعرهم ويحرمهم لذة النوم، ولا يفتأ يفجر فى دواخلهم الحقد والحسد.

كانت جارتى.. وكنت ألعب مع أخيها الكبير رمزى زميل دراستى، وقد سار على درب أبيه، وأصبح أستاذاً للقانون وأُعير إلى الإمارات، وكانت هى تحب اللعب مع أختى نور الهدى زميلتها، وفى نفس سنها.

طفلة مُدلله جداً ودلوعة.. تتقافز فى البيت وتخطف الأشياء من أخيها، وتجرى ويجرى فى إثرها ليضربها، وما أن يلحق بها حتى يجد فجأة أباها وقد حال بينه وبينها.. تختبئ وراء ساقيه.. يغمز أبوه له كى

يدعها، وترقب هى النتيجة التى تتجلى تبرماً على وجه رمزى.

تأتى أحياناً مع أمها لتزور أمى، وكثيراً ما أجدها راكبة فوق كتفى أبيها، وهو يلعب عشرتين طاولة فى حديقة بيتهم.. كانت فى كل مكان، ومع كل إنسان وصوتها أعلى الأصوات، وكانت أوفر الجميع نشاطًا وأكثرهم مرحاً، موجودة دائماً حتى وهى نائمة فى أحاديثهم وعلى ألسنتهم وفى خواطرهم، يتبادلون نوادرها وشقاوتها.

بعد أن رزقت أسرتهم بولد ثان هو ساهر، كانت تدعى أنها تداعبه، لكنها - كما اكتشفوا بعد ذلك - كانت تشده من أذنه فيصرخ أو تجذب «اللهَّاية» من فمه، وتفك دبوسها من صدره، لتضعها فى فمها هى وتجرى تاركة إياه يصرخ، وكأنها تدربه على مستقبل يخيم عليه الخوف منها.

كم حاولت أن تمسك حدقتى عينيه، حتى تنبهوا لها وأصبحوا يضعونها تحت مراقبة صارمة إذا لاحظوا قربها منه.

رغم سنواتها القليلة لا تكاد تتوقف عن الثرثرة والفضول ولسانها يعمل باستمرار، ويصفع كل شىء وكل إنسان.

لم تكن فدوى إلا هذه الطفلة التى تسبقها شقاوتها وخفة دمها ودلعها الزائد، ولم يكن مستبعداً أن يصحو والدى من نومه، فيجد فدوى تجلس إلى جانبه على السرير أو تميل على مذياعه الصغير تقلب فى مفاتيحه دون أن تعرف كيف تديره.

كانت انطلاقاتها إلى كل مكان فى البيتين.. بيتنا الذى نشغل منه الدور الأول والثانى، ويسكن آخرون الثالث والرابع، إضافة إلى بيتهم وكان دوراً واحداً وله حديقة صغيرة، يصعب أن نخلع عليه صفة الفيلا.

هذه كانت فدوى المهدى

طفلة.. طفلة فقط.. لكنها تمسك فى يديها كل الخيوط التى تعلق القلوب المحيطة بها، هى طفلة وأنا أحب الأطفال.. وقد أحببت الأطفال كما أحببت القمر.. أحببتهم منذ كنت مثلهم، ولم أهتم أبداً بالكبار حتى بعد أن أصبحت مثلهم.. ألم تر كيف أفاض الله عليهم

جمالاً وصفاء وبراءة ؟ !

شاركت الأطفال ألعابهم لأنهم عالمي، وسعيت إليهم لأني إليهم أنتمي.. أفهمهم ويفهمونني.. أغلبهم ويغلبونني، أفكر فيهم ويفكرون فيَّ، هم مهمون جداً بالنسبة لي، وأنا بهم مشغول ومهتم.

كان لي في إخوتي الغناء. كنا خمسة، ثلاثة أولاد وبنتين، متقاربي الأعمار.. جئنا إلى الدنيا خلال سبع سنوات.. قضينا جميعاً طفولة سعيدة. لازالت تحتفظ بها الصور الكثيرة التي التقطها لنا أبي في أوضاع ومناسبات مختلفة سواء في البيت أو في المزرعة.. صورنا إحدى ثرواتنا.. كان أبي وهو مدير عام زراعة الجيزة مغرماً بالتصوير مع اهتمامه بالنباتات والورود، ويشاع في الأسرة أنني أخذت الكثير عنه.

لما بلغت سن الرشد ظل الأطفال عالماً جميلاً يستحوذ على محبتي وإعجابي.. أتوقف لهم في الشارع، وأعلق بعض صورهم على جدران غرفتي، ولم أكن أعلق مثل غيري من الشباب صور نجوم السينما والرياضة.. كل الأطفال من سن الرضاعة حتى العاشرة قابلون للمداعبة وقادرون على إثارة البهجة.

الأطفال زهور العالم ومصدر بهجته الأول، والنظر إليهم متعة حقيقية.. ويالها من متعة أن تحاور طفلاً ذكياً جميلاً خفيف الظل.. أو طفلاً شقياً.. المهم أن يكون حسن التربية.

الأطفال بسمة الدنيا، ويدها الحانية التي تمسح برقة وحنان جبين الآباء الذين يشقون في الحياة ويضربون بقسوة في الأرض.

فكرت طويلاً وأنا أتخيل الكون بدون أطفال، تلك الأقمار الصغيرة التي تضيء ظلمته وتزيح كآبته وتعيد إلى الشفاه الجافة المشققة ألق البسمات، لكني ضد كثرة الإنجاب اعتماداً على أن الله هو الرازق.

تمثل الطفولة لي كما تمثل الأقمار رمزاً للمرح والغبطة والانطلاق.. الانطلاق إلى درجة أن يخلع الطفل الصغير كل ملابسه ويجري ويتقافز هنا وهناك، وليس ثمة إحساس بالعورة أو الإباحية.. كتلة

صغيرة من اللحم الأحمر . . تتشكل وتضحك وتضيء العالم، وتبهج الأهل والأحباب .

كثيراً ما فكرت فى مرحلة الطفولة، وتمنيت أن تطول لتشمل العمر كله . . فيكون سلاح المرء فى الحياة، طفولته . . ابتسامته . ذكاؤه البرىء، خفة دمه، انطلاقه وعفويته . بساطة أنانيته الصغيرة . . تعبيره الفورى والواضح عن رغباته ومشاعره .

ما أحلاها سمات الطفولة . . الوجه الواحد . . الطاهر والساحر . من أجلهم اشتريت وطورت مصنع لعب الأطفال وعرائسهم، ومن أجلهم أضفت قسم الطباعة الجديد كي أطبع لهم قصصاً ومغامرات ومجلات وكتباً ثقافية مختلفة، ومناظر طبيعية، وكتباً للتسلية تناسب كافة الأعمار من الثالثة حتى الثامنة عشرة، فكل هذه السنوات طفولة والبلوغ فى نظرى لا يعنى نهاية مرحلة الطفولة، والمؤكد - لى على الأقل - أن الطفل فينا موجود حتى بداية سنوات الجامعة، وقد يوجد هذا الطفل طول العمر فى أرواح بعض الشخصيات الطاهرة الخالية من العقد، والتى لم تلوثها التجارب الفاشلة مع الناس، ولم تنبت لهم بدروسها البائسة مخالب وأنياب .

مثل هذه الشخصيات تظل بسيطة . حسنة الظن تحب الناس والطبيعة . تجيد التسامح وخلق الأعذار لبنى البشر المساكين .

سوف نعمل قريباً على تنفيذ الفكرة التى تراودنى لتأسيس مدينة متكاملة للطفولة، تضم كل ما يخص الأطفال من حدائق وملاعب وملابس، ويمكن أن يقضى فيها الآباء والأبناء يوماً كاملاً يلهون ويشترون ويكسبون المسابقات ويتعلمون . . إنها مدينة «أحباب الله» ستقام بعد أن تستوفى التصميمات الهندسية، على الأرض التى دفعت مقدمها الشهر الماضى، وتقع عند الطريق الدائرى على بعد حوالى كيلو مترين من المصنع، وتبلغ مساحتها عشرة أفدنة .

***

(٥)

فى الثانوية العامة عكفت على المذاكرة بعنف وتحد، ولم ألتفت إلى أى شىء آخر.. خصصت كل ساعات النهار وبعض ساعات الليل للمذاكرة، وتنكرت لكل ما كان يشغلنى أو يجذبنى.. كنت أشعر أنى أحمل حملاً ثقيلاً أصعد به جسراً عالياً، وأتصور أن الناس تراقبنى لترى هل أستطيع.. ثمة رغبة ليست بالتأكيد شريرة فى التفوق علي رمزى، وصلاح علام ابن ناظر المدرسة، الذى كان يطلع الأول دائماً.. الأول بجدارة فى كل السنوات وأغلب المسابقات ومثَّل المدرسة فى عدة برامج، منها برنامج أوائل الطلبة، وكان مولعاً بالتاريخ الفرعونى.. يستدرجنا إليه بمناسبة وبدون مناسبة، حتى ليذكر لنا أحداثه أسرة بعد أسرة، كأنه يتحدث عن عائلته وعن أخواته.. وكنا فى هذه الفترة ننظر إلى التاريخ الفرعونى على أنه مادة سخيفة ومملة كأنه يخص شعوباً بعيدة وغريبة، وإن كنا لا نملك إلا أن نحترمه لأنه عمل لنا قيمة وسط شعوب الدنيا.

كان أبى يشجعنى بحرارة متمنياً أن أدخل كلية الاقتصاد والسياسة، وكنت أتمنى كلية الفنون الجميلة.

حبست نفسى فى غرفتى بالدور الثانى معظم الوقت، حتى أقاربنا لم أحاول لقاءهم، وفى إحدى زياراتى لرمزى، رأيت فدوى.. فوجئت بها شابة نضرة متألقة وهى لاتزال فى الشهادة الإعدادية.

- أهذه هى الطفلة الشقية!.. هى نفسها.. غريبة.. وغريب أمر البنات.

فتاة فى ريعان الشباب، بديعة التكوين.. متألقة الوجه.. ريانة البدن.. شعرها غزير أصفر، تتميز بحيوية ملفتة.. متى نضجت؟ ومتى نبتت لها هذه المفاتن؟

نجم جديد فى العائلة بزغ بقوة وفرض على من حوله أن يعيدوا

حساباتهم وأن يتحدثوا معه بلغة جديدة و ينظروا إليه نظرات جديدة..
الغريب أن ملامحها هى.. هى.. بياض الزبد يضىء الوجه المستدير..
الجبين العريض.. الأنف الدقيق. الفم الصغير، بينما العينان
كعهدى بهما يشغلان نصف الوجه ويشغلان من ينظر إليهما..
الياقوتتان الخضراوان..

لكن هذه المعالم لم تكبر فقط، إنها تشع جاذبية، تلهب العقول
وتطلق سهاماً تصيب القلوب، وهج تصطلى به الأبدان والأرواح التى
تدنو من حدود هذه المجرة.

لاحظت ساقين من المرمر الحى يتسربان من فوق الكعبين إلى أعلى فى
جملة إلهية تشكيلية غاية فى الوسامة والجمال والقوة، سبحانه الخلاق
العظيم.. فنان رائع.. عودنا أن يبدع دوماً فى كل ما يخلق، ويتجلى
بقدرته اللانهائية وهو يصيغ آيات الجمال، حتى لنعبد أحياناً بعض ما
يبدع، وقد نهانا عن ذلك، لكن الإنسان لا يدرك أنه ضعيف، ولا بد أن
ينحنى للجمال، والجمال مجد لخالقه، ودليل عظمته بل هو روح العظمة
والعبقرية، وكل من يخلق الجمال أو يسعى إليه، فى روحه نفثة من
العبقرية بمقدار ما أبدع واجتهد.

كان باقياً على الامتحان نحو نصف شهر، وبعد أن وقعت عليها
عيناى، ورأيت ما رأيت.. أصابنى دوار.

بقيت أياماً ذاهلاً عن الدراسة، مصاباً بدوار المفاجأة، ودوار الجمال..
دوار العجز عن المبادرة، وافتقاد أسلوب الحوار.. دوار فى دوار.. شعرت
فجأة أن الدراسة ليست بذات الأهمية التى يعلقونها عليها.. وسيطرت
علىَّ فكرة أن كل الجمال يتجمع فى فدوى، وكل العالم عينه من فدوى،
وما الأحداث التى تجرى فى الكون إلا بسببها أو سعياً إليها أو محاولة
للفت انتباهها.

كيف يمكن أن تكون لى حياة بعيداً عنها؟! كيف أقضى ساعة واحدة
وبينى وبينها جدار.. ليتها تجلس أمامى لأحدق فيها وألمسها أحياناً

وأقبلها ولو مرة، وأعانقها ولو مرة.. تسكن أحضانى، وكل ما فى من جنون وثورة ساعتها سوف يسكن، ليتها، وساعتها فقط يمكن أن أذاكر وأتفوق على صلاح وعلى الجميع.. الآن فقط أصبحت أشعر أنى شاب يحتشد بالرغبة فى الحياة، تخامره آمال كبرى.

بعد تفكير اهتديت إلى أن الوصول إليها لا بد أن يمر بالدراسة وليست هى الطريق إلى الدراسة.. وإنما الدراسة الطريق إليها.

عدت إلى المذاكرة، وقد قررت أن أقدم لها نجاحى الساحق هدية، أو عربون محبة. أصبح جمال فدوى فجأة هو قمة أهدافى. بل هدفى الوحيد، كورت يدى حتى أصبحت قبضة قوية تتشبث بالهدف فى إصرار وتصميم. وظهرت النتيجة..

لم يكن نجاحى ساحقاً، لأنى فيما يبدو كنت مشغولاً بها.. لم تفارق صورتها خيالى، مع أنى كافحتها وطردت طيفها عشرات المرات وأخلصت للمذاكرة بأقصى ما أستطيع، طعامى كان قليلاً جداً، كما كانت تقول أمى وهى منزعجة، لكنها فيما يبدو كانت قد شقت الحجب وجاست فى دروب اللاوعى، وسكنت أعماق القلب بينما رأس فدوى مندس بين صفحات الكتب.

المهم أنى تفوقت على أخيها كما أردت، ولم أستطع أن ألحق بصلاح علام، الذى كان يلعب بالكتب لعباً، ولا ترهقه أية مادة، ويفهم كل شىء، ويتمتع بذاكرة غريبة واستيعاب قوى، ويواصل قراءاته الحرة عن المصريين القدماء.. ولم يكن هذا ما يميزه فقط، لكنه كان قادراً على نقل ما فى رأسه إلى الورق، ولديه قدرة على التعبير.

شعرت فجأة برغبة قوية فى قراءة الروايات والأشعار.. وضعت خطة متنوعة الأساليب للقائها ونقل مشاعرى إليها، لا بد أن تعرف أنى أحبها.. سوف تكون علاقتى برمزى هى وسيلتى، ويمكن أن تحمل كوثر بعض رسائلى.. فهى لازالت صغيرة ويمكن أن تسمع كلامى، أما نور فهى فضولية.

قبل أن أسلم لكوثر أول خطاب، كانت الأسرة تجمع حقائبها للسفر إلى المملكة العربية السعودية حيث يقوم د. سيد المهدى بتدريس القانون فى إحدى جامعاتها بالرياض. كان سفرهم أول صفعة أشعر بألمها فى قلبي وأول صدمة حقيقية أعى حجمها وأثرها، حتى اعتزلت الجميع أياماً.. للمرة الأولى أدرك معنى الحرمان، وتقطرت المرارة فى حلقى قبل أن أفيق وأتعرف على ما يدور حولى.

ذهبوا.. ولم يبق فى البيت إلا رمزى ملتحقاً بكلية الحقوق بعد أن أصر والده أن يدخلها لينتفع بالمكتبة الكبيرة وبصداقته وزمالته للأساتذة ولما يمكن أن يفيد منه شخصياً، التحق صلاح علام بكلية الآثار، أما أنا ففى كلية الفنون الجميلة وجدت بغيتى. انفتح أمامى عالم جديد، يوصل إليه طريق العلم والتحليل الدقيق لعناصر التكوين والتشكيل، وفهم أسرار الجمال فى الطبيعة والإنسان والأشياء.. الضوء والألوان، الظلال والملامح.

كل جمال له فلسفة وله مفتاح وله أساليب وآليات.. سبحت طويلاً ومستمتعاً مع تاريخ الفن ونماذجه المتألقة عبر القرون وأعلامه الأفذاذ الذين امتلأ بهم وقتى وفكرى، وأنا أتأمل حيواتهم وجنونهم الشخصى والفنى.

قضيت الليالى فى دراسة منافذ عبقريتهم وأسرارها.. لم أجد فى نفسى أى ملمح من ملامحهم، اللهم إلا حب الطبيعة والناس وشيئاً من الإحساس بالجمال.. جميعاً نفذوا إلى.. دالى ويوسف كامل، سيف وانلى ومايكل أنجلو.. محمود سعيد وحامد عويس وندا والجزار وصلاح طاهر ودافنشى، رودان وسيزان وروبنز وديلاكروا.. فان جوخ ومونش. شاجال وميرو، بينما كانت ملامح فدوى تشحب وتبتعد وتجر معها عالمها الذى بهرنى يوماً.. وهأنذا مغمور بفن العظماء الذين صنعوا العالم الجديد.. بثوا فيه روح الحياة والمقاومة وفجروا فيه بركان التحدى والعظمة. وظلوا يعملون بقوة إلى أن

وصلوا إلى واندسوا في صحوى ومنامى وتراقصت أطيافهم مع لوحاتهم أمام عيونى.

كنت دائماً أحس أنى صفر أمام إنجازاتهم الرائعة ومواقفهم الجسورة تجاه الحكام والملوك والتجار.

أجدت الرسم والتصوير والتصميم، وقال البعض إن لمساتى الفنية بديعة، وقد تكون هذه الآراء عن حق وتقييم سديد، وقد تكون فقط للتشجيع وربما بغرض النفاق أو مجرد مجاملة.

إننا في كثير من الحالات لا نكاد نعرف أين الحقيقة.. والألسنة تجيد اللعب والخداع، وملامح الوجوه متواطئة مع الألسنة، تعمل معاً في اتجاه واحد، غالباً ما يخالف اتجاه القلب أو العقل.

كان إقبالى على الثقافة الفنية وتحصيل معارفها هو المصدر الأساسى لمتعتى، وكانت السباحة في بحار الفنون.. كل الفنون وتفاصيل إبداعاتها وتجاربها ونظرياتها وتقنياتها هى شاغلى، حتى عن فدوى.

لكنى اكتشفت أن فدوى لم تغب تماماً، كانت هناك في مكان ما من قلبى والعالم. وقد رسمت لها صورة اعتماداً على ما تحتفظ به ذاكرتى من ملامحها وما ألتقطه من وقفاتى السريعة أمام صورتها المعلقة فى صالة منزلهم كل خميس، وهو يوم زيارتى لرمزى، أنا وصلاح.

نسهر الليل معاً ثم ننطلق بسيارتى فى الصباح إلى مزرعتنا على ترعة المريوطية بعد استديو مصر بثلاثة كيلو مترات، وعندما يكون الجو بارداً يصر صلاح أن نقضى اليوم كله بجوار الأهرامات و«أبو الهول» فنبقى هناك تحت الشمس.. نتنفس هواء نقياً منعشاً.. نركب الخيول والجمال دون أن نحس بالسأم، ودون أن يتوقف صلاح عن الكلام عن أصحاب الدار.. فى هذه الفترة بدأت العدوى تتسلل إلى وجدانى، وأشعر بالشوق إلى «أبو الهول»، ولم يعد صلاح هو الذى يدعونى أو يصحبنى إليه...

(٦)

في قاعة د. عبدالرزاق السنهوري بكلية الحقوق كانت المناقشة حامية، وكان الطالب رمزى سيد المهدى شقيق فدوى يجلس متماسكاً وقوياً يرد ببراعة وثقة على أسئلة وتعليقات الأساتذة، حتى انتهت اللجنة من المناقشة.. وترقب رمزى والجميع معه نتيجة مداولة الأساتذة الذين دخلوا غرفة مجاورة، ثم خرجوا ليعلنوا حصول رمزى على الدكتوراة فى القانون بامتياز مع مرتبة الشرف الأولى.

ضجت القاعة بالتصفيق والزغاريد.. وطفرت الدموع من عيون رمزى ووالده الدكتور سيد المهدى في وقت واحد.. كان التليفزيون يصور والإذاعة تسجل تلك اللحظات الرائعة والوجوه الفرحة، ولهفة الأهل لعناق الطالب، أكثر الجميع فرحاً كان بالتأكيد زوجته نور الهدى متولى السروجي شقيقة يسرى.. التف حوله الجميع يهنئون ويقبلون ويثنون على الثقة بالنفس والحضور القوى والرسالة التى نالت الامتياز .

أكد الأساتذة المناقشون للرسالة للدكتور سيد عميد الكلية أنهم أبداً لم يجاملوه فى ابنه، وكان شاغلهم الأول الاطمئنان على استعداده وسلامة بنيانه العلمى، وحرصهم على أن يقدموا للجامعة، عالماً أصيلاً لا يسىء إليهم ولا إلى العلم.

تضمنت الرسالة اجتهادات علمية للمقارنة بين نصوص الشريعة الإسلامية والقانون الوضعى المصرى المعاصر ومدى احتواء الأخير على مضمون الشريعة.

أصر يسرى على أن يقيم فى بيته حفلاً للدكتور رمزى.. ونافسه فى ذلك كثيرون، لكن فدوى ونور الهدى شجعاه وعضدا دعوته، وكانت ليلة من ليالى الأسرة الكبيرة.. تفخر بها وتذكرها فى أيام الركود والصمت.. وعلى أقل تقدير تضحك وتفرح فى ظل مناسبة مجد،

حقيقية وبناءة.. لا مجرد سهرة سمر وتسلية تحييها مسرحية كوميدية في شريط فيديو كما قال صلاح الذى حرص يسرى على دعوته بوصفه أحد الأصدقاء الثلاثة.. يسرى، رمزى، صلاح، كما حضرت كوثر شقيقة يسرى وزوجها صاحب مصانع لمعى للسجاد فى العاشر من رمضان.

هاجمت بعض الصحف أسلوب فدوى فى معاملة الضيوف الذين تدعوهم إلى برامجها، وركز أكثرهم على أنها تتحدث أكثر من الضيف، وتقاطعه ولا تدعه يكمل حديثه.

فوجئ يسرى بها تثور وتلقى الصحف، وتمزقها، ثم تصرخ فى الجميع وتدخن وتمتنع عن الطعام.

كان اليوم جمعة وطلب إليها أن يخرجا للنزهة ويصطحبا رامى الذى احتفلوا بعيد ميلاده الخامس منذ عدة أيام.

حاول معها لتتخلص من حالتها، وهوّن عليها الموقف، ربما تكون بعض النفوس الضعيفة أو الحاقدة وراء الحملة، لكنها كانت تزداد ثورة، في النهاية صارحها بأنه يرى أن الحملة وما قيل فيها ليست كاذبة تماماً، وأن لها نصيباً من الصحة.

لقد ألقى بنزين صراحته على كبريت أعصابها. لم يجد ما يفعل إلا أن يأخذ رامى ويخرج.. دار بالسيارة فى عدة شوارع وهو يفكر فيها وفى طباعها، حتى هدأت ثورته ثم توجه إلى «أبو الهول».. ما أن وقف أمامه.. حتى شعر براحة غريبة:

- يا ولدى.. هذا جدك أبو الهول.

سأله رامى: هل أبو الهول يتحرك يا أبى؟

- لا يا حبيبى.

- هل يتكلم؟

- لا يا حبيبى.

- وهل يأكل؟

- لا ياحبيبى .

- إذن فهو ميت .

لا يستطيع أن يقول إنه ميت ، وبالطبع لن يستطيع القول بأنه حى ، هل ورّط نفسه مع ولده الذى لن يرحمه وسوف يسأل إلى الأبد ؟ ! . .

اكتفى بأن قال له : هذا تمثال . فسأله : ما معنى تمثال ؟

بسط له القضية : إنسان من حجر .

- ولكنه كبير جداً

- نعم يا حبيبى . . كبير جداً .

- إنه أكبر منك .

- طبعاً . . طبعاً . . هيا اعتدل فى وقفتك وانظر إلى هذه الناحية لألتقط لك صورة . .

مضى يلتقط لرامى الصور فى مواضع مختلفة :

- ليت أمك كانت معنا .

جلس وأخرج من الحقيبة الصغيرة بعض الساندوتشات قدمها لرامى الذى رفض الجلوس .

وما لبث يسرى أن لبى دعوة التفكير فى فدوى ، موجهاً حديثه إلى «أبو الهول» : لاحظت تغيراً تدريجياً فى طباعها . . الحدة والعصبية والتوتر ، وسرعة الغضب ، وغدا قاموس ألفاظها حاوياً لعدد من الألفاظ الخارجة والشعبية إلى جانب كثرة التدخين ، والإقبال على شرب البيرة وأحياناً الخمر ، وطوال الوقت تتحدث فى التليفون . . وإهمال للولدين . . رامى وخالد . . لا تكلف خاطرها أن تلقى عليهما نظرة قبل أن تنام . . أما المولودة الجديدة «سها» ، فمعظم النهار مع هانم لأن الست مشغولة دائماً بالثرثرة والمكياج واستقبال الأصدقاء . . عالم هلامى تجر نفسها وتجر الأسرة إليه ، وقت ضائع وعلاقات لا معنى لها ولا قيمة . . إننى أتحدث إليك يا صديقى بما لا أستطيع التصريح به لرمزى أو لصلاح . قال له «أبو الهول» : عليك أن تحدثها فى حالات الصفاء والانسجام ، وأن تنبهها إلى

خطورة ما تفعل على الحب وعلى الأسرة ، وخاصة الأولاد . .

إنكما جديران بالسعادة ، لكنك المسئول ، لا بد أن تمسك بلجام الفرس وتحسن قيادته وتوجيهه ، ولا تدعه يفلت منك فيجمح وينطلق إلى أرض مجهولة . .

كان يسرى منذ البداية يدرك أن «أبو الهول» شخصية رائعة ، وأنه بتشكيله الذى يجمع بين وجه الإنسان وجسم الأسد لا بد يمتلك فكراً وقوة وحكمة .

ها هو يجلس جلسة الهادئ المطمئن الذى لا تؤرقه أطماع ولا تقلقه هواجس ، ها هو يتطلع إلى الناس والبنايات القريبة والأفق البعيد ، وتمتد نظراته إلى نهر النيل وتتجاوزه إلى قلعة محمد على وجبل المقطم والصحراء الشرقية حتى شواطئ ومياه البحر الأحمر ، وتغوص أكثر فتنتقل من الجغرافيا إلى التاريخ لتصل إلى أيام مينا وإخناتون وخفرع ومنقرع وزوسر ورمسيس الثانى حتى كليوباترة ليشهد كافة الأحداث الكبرى التى مرت على المنطقة ، وأدت فى النهاية إلى أن يكتسب الصبر والوداعة والحنان ، وأن يميل إلى التأمل .

يحدق بثبات صوب البشر دون كلمة ، يأسى أحياناً لأحوالهم وأحياناً يشجعهم ، وفى أحيان كثيرة يفقد فيهم الثقة . . أحداث كثيرة جرت ، والتواريخ تترى . . نافورات الزمن الماضى تنثر أيامها فوق الرمال والأحجار التى تترامى حوله ، تتجشأ أياماً مقبلة . . أياماً جديدة تماماً ، وصدئة .

لماذا لم تترك مسافة كافية بينك وبين الدهماء . . أنت طيب ومتواضع . . كان يتعين أن تترك مسافة . . هل تذكر موقف ديجول عندما عاد منتصراً من الحرب العالمية الثانية قائداً لرجال المقاومة الفرنسية ضد الألمان ، وكان الشعب الباريسى يستقبله بحفاوة ، وقبل أن يقترب وهو يمشى على قدميه من قوس النصر ، قال لمساعده الذى كان يلتصق به . .

- اترك مسافة لو سمحت حتى لا يختلط الأمر على الشعب .

- هذا ليس عيباً يا عمنا .

إذا ذهب أحدكم إليه فلينظر بقلبه إلى عينيه ، سوف يلحظ الدعة والحنان . . وسوف يتأكد أنه يرى تقريباً كل شيء ويزنه ، ثم يلقيه جانباً إذا كان تافهاً أو لعيناً ، ويحتفظ فقط بما يستحق . . إذا ذهب أحدكم إليه ، فلينظر إلى يديه الممتدتين في هدوء وثقة . . إذا ذهب أحدكم إليه فليسلم عليه . . إذا ذهب . . أحدكم .

صار «أبو الهول» أحد أهم انتماءاتي . . حرمه وطني . . رمله أرضي ومستقرى لساعات . . أنا في مواجهته أجلس مقرفصاً . . أحيط ساقيّ بذراعي ، متطلعاً إليه . أبثه ما يجيش بصدري وأستمع إليه وألمح فكه السفلي يتحرك ويبرز خارجاً إلى الأمام وكأنه جزء منفصل عن جمجمة رأسه ، وعندما يبتسم لا تتغير ملامحه الوديعة ، ويظل أبداً صامتاً ، حكيماً ومتشحاً بالكبرياء ، وأتصوره عندما أتحدث إليه واضعاً يده تحت ذقنه ، يرهف السمع ويمعن في التفكير .

(٧)

استيقظ على قبلات فدوى، وهي تقول له: اقرأ ما كتبه الناس الذين يعرفون الأصول ويفهمون طبيعة أعمالنا.

دعك عينيه وتمطى، أطل على الصحف التى فرشتها على جسده، وأمسك رأسه.. لم يستطع مطالعة شيء، ثم تثاءب.. أخذتها من أمامه وأمسكت بها قائلة: اسمع يا سيدى ما كتبه حسين رشدى في جريدة النهار..

مضت تقرأ له ما كتبه عنها وعن حضورها وبراعتها فى توجيه الأسئلة وجسارتها فى مواجهة المسئولين، والقضايا الساخنة التى تتناولها.. كان لايزال يتثاءب، أمسكت بصحيفة النور وقالت: واسمع ما كتبه شوقى الدالى.

قال لها: أنت تعرفين أننى أتعب إذا استيقظت قبل موعدى بساعة أو حتى نصف ساعة..

علت وجهها جهامة واتسعت عيناها، وقالت:

- إذن أنت لا تريد أن تسمع، لا تريد أن تعرف ماذا كتبوا عنى.

حاول أن يصحو، وعاد يتثاءب، ويقاطع التثاؤب بقوله:

- كيف لا أريد ذلك؟.. كان يجب أن ينصفوك.

علا صوتها فجأة:

- إذن لماذا ترفض أن تسمع؟

- أنا لم أرفض يا فدوى.

صرخت:

- أنت رفضت الاستماع، ورفضت الاستيقاظ، وشكلك غير طبيعى.

- الله يسامحك.

- وهل أنا كفرت ؟
- هل تعلمين متى نمت بالأمس ؟
- أنت لا يهمك إلا نفسك
- حرام عليك يا فدوى . .
صرخت من جديد :
- حرام عليَّ أنا . . الآن فهمت ، عندما كتب الصراصير ما كتبوه أيدتهم ، وقلت لديهم حق ، والآن لا تريد أن تسمع .
تركها واتجه إلى الحمَّام ، أشعلت سيجارة ، وظلت تخبط على فخذها العارى فى حركة عصبية .
خرج يسرى من الحمام ومرَّ على ولديه ، اطمئن على غطائهما ، وعدل خالد الذى أوشك أن يقع . . دخل غرفة النوم ، وجدها تنفث الدخان بقوة ، احتضنها وقبلها ، قائلاً :
- من حق كل زوج على الآخر وكل شريك على شريكه أن يعرف طباعه ويحترمها ، ونحن متزوجان منذ ستة أعوام . . أنا عرفت طباعك ، وأنت لم تحاولى أن تعرفى طباعى .
- عرفتها .
- عرفتها ولا تحترميها .
- أنا أحترمها جداً جداً . . لكنك لا تهتم بمشاعرى .
- من غيرك فى الدنيا يهمنى ؟
- كلام .
ضمها إلى صدره بحنان وقبَّلها ، تقدم خطوات فألقى على قطعة اللحم الحمراء « سها » نظرة متعجلة
- أتمنى فقط أن تهدئى . . حذار من الانفعال فهو عدو البشر الحقيقى ، ليس هناك فى الدنيا شىء يستحق أن يعكر الإنسان مزاجه من أجله .
- كنت فى حالة سيئة منذ كتب حثالة الصحفيين ما كتبوا فى الأسبوع الماضى . .

شرع فى ارتداء ملابسه .

- أعرف . . وأعرف أيضاً ماذا فعلت لكى يصححوا الصورة .

- ماذا تقصد ؟

- أقصد أننى سمعتك وأنت تتصلين بالوزير ورئيس تحرير الصحيفة التى نشرت المقالة السخيفة عنك .

- كان يجب أن أوقفهم عند حدهم ، ليعرفوا من هى فدوى المهدى .

- وقد عرفوا والحمد لله .

- مجموعة مرتزقة .

- الذين كتبوا فى المرة الأولى أم الثانية .

- يسرى !

- أنا أعاكسك . . لا تحملى هماً . . سوف يصلك حقك يوماً ما . . أنا أؤمن بأن الإنسان عليه أن يسعى وسوف يعرف النجاح عنوانه .

- أنت واهم

تمهلت قليلاً ثم قالت :

- أليس من المناسب أن أدعو حسين رشدى وشوقى الدالى ورمزى الجزار .

- لا . . هذا لا يجوز .

- تعبيراً عن شكرى .

- اشكرى بالتليفون .

تحرك خارجاً . . ارتدت روباً وتبعته ليتناولا الفطور . . كانت هانم فى استقبالهما . . استكملا حديثهما إلى أن رفع رأسه إلى الساعة الكبيرة على الجدار ، ثم وقف وقال : آن أن أذهب

دخل المكتب . أخذ حقيبته وخرج . . فتح الباب . . كانت القطة بوسى فى انتظاره . . توقف لدقيقة ينظر إلى الدنيا فى إشراقة الصباح الجميل . . شعر أن الصباح ضرورى جداً للحياة . . نهار مشرق بالنور والجمال والنشاط والهواء النقى . . تقدم من الحديقة . . ليس ثمة صوت إلا زقزقة العصافير المتحمسة للنهار . . مال على الريحانة . تحسس أوراقها . دفن

وجهه بين أغصانها الرفيعة. أخذ نفساً عميقاً. شرب من عطرها وسقى روحه الظمأى.

ابتهج من أعماقه عندما وقعت نظراته على الفل والبنفسج والياسمين.. رآه محروس.. تقدم منه وحيّاه.. كانت الورود فرحانة مثله بالصباح الجديد.. قطرات الندى تتلألأ على بعض وريقاتها الطاهرة.. احتواها جميعاً في عينيه.. كانت كل منها تحاول أن تجتذب نظراته ببهائها الرباني.. تنهد وارتوى ثم مضى.. تبعته بوسى حتى ركب السيارة.. تابعت مسيره ثم استدارت عائدة. شرعت تستحم في الأشعة الدافئة.

مر يسرى على الغلاية وعلى فرن البلاستيك، واستمع إلى شكاوى العمال في هذا القسم، وانتقل إلى قسم العرائس.. العمل يجرى بشكل منتظم وبصورة مرضية، تم تسليم ٦٠٪ من الطلبية الأخيرة بعد مرور أقل من نصف المدة المتفق عليها.. مضى إلى قسم الألعاب، واقترح عليه رئيس القسم ضرورة الانتقال إلى اللعب المعدنية التى تنتج من رقائق الصفيح.. اقتنع يسرى وطلب أن يعد مقايسة بالاشتراك مع نزيه رئيس الحسابات والمهندس عادل حنين.

دخل مكتبه واستدعى نزيه، سأله عن رصيد البنك وطلب منه أن يكتب إلى الشركات التى تسلمت كميات من اللعب لتسدد ما عليها حسب العقود.. ويعد مقايسة عن تأثير إجراء خصم على اللعب في حدود ٢٠٪ خلال شهر رمضان والعيد.

استقبل يسرى وفداً من دولة قطر للاتفاق على استيراد كمية من اللعب على أن يتم التسليم فى نهاية شهر شعبان، ووعد بالتنفيذ بعد أن رافق الوفد فى جولة بالمصنع، يتقدمهم السيد طربوش رئيس العمال..

اتصل به صلاح ليدعوه إلى سهرة.. لم يتعود السهر، ولم يقدم عليه إلا نادراً منذ ارتبط بالمصنع وبالزواج.. لكنه قبل الدعوة.. شعر أنه بحاجة إلى غسيل القلب.. إلى تغيير ما.. إلى أن يطالع عالماً مختلفاً.. تساءل:

- أليس سيئاً إلى حد ما أن زوجتك جميلة وسليطة ومسيطرة،

وتقبض بأظافرها على قلبك لأنك تحبها . آه يا فدوى . . من أين لك كل هذا العناد والاستبداد ، وأبوك رجل طيب . . من حق أى إنسان أن يتساءل هل هو سعيد أم لا . . عليه أن يسأل نفسه هذا السؤال كل أسبوع أو حتى كل شهر ، وأيضاً في المناسبات المختلفة . .

تذكر أن موعد معرض رسوم الأطفال وألعابهم سيكون بعد العيد بأسبوعين ، وعليه أن يذكّر طربوش ورؤساء الأقسام الفنية ، ليهتموا بهذا المعرض ، الذى يمثل له أهمية كبيرة .

طلب طربوش وذكّره بالمعرض . . قال له طربوش :

- لا تحمل هماً . .

- لا تنس أن تبلغنى بأية مشكلة مهما كانت بسيطة فور ظهورها .

- ليس هناك مشاكل والحمد لله . . الحقيقة يا يسرى بك إن طريقتك مع العمال والموظفين قوية ومهذبة في نفس الوقت ، وهم جميعاً متعاونون .

- الإدارة يا عم سيد أهم شيء في الدنيا . . ليس فقط فى مصنع أو حكومة ولكن الإدارة مطلوبة حتى للإنسان مع نفسه وبيته ومع السيارة والأولاد والناس والجيران و . . .

قاطعه طربوش : حتى لا أنسى . . المهندس عادل حنين يريد موافقتك على سفره إلى الكويت . . أرسلوا له عقداً .

سكت يسرى لحظة ثم قال بحسم : إلا عادل .

- أنا قلت له إنك ربما ترفض .

- أنا لا أقف ضد مصلحة أحد . . لكن عادل . . مستحيل . . ابعثه إلىّ فوراً . . أنا فى الوقت نفسه لا أحبه أن يغضب . ذهب طربوش ، وعاد بعد لحظات ومعه عادل .

مطّ يسرى شفتيه وهو يحس أن ركناً مهماً من أركان المصنع ومن أعمدة مشروعه بالكامل يوشك على الانهيار . . عادل فنان ومخلص وطيب وشغال وبلا شكاوى ، ويتصرف فى أية مشكلة دون إزعاج ،

الإدارة قدر الإمكان.

أخرج عادل من جيبه العقد وقدمه إلى يسرى.. كان المبلغ كبيراً.. لم يستطع أن يعلق، نظر إلى عادل.. أحنى عادل رأسه.. تنهد يسرى وسأل عادل: والدببة والعرائس يا عادل والألعاب الجميلة التى ابتدعتها يا بنى..

قال عادل بهدوء شديد: البركة فى الزملاء يا باشمهندس.

سأله يسرى: متى تريد السفر؟

قال عادل: يصرون على أن أكون هناك ثالث يوم العيد.

- والمعرض يا عادل.

- لذلك أنا خجلان منك.

- سأرسل إليهم خطاباً باسمي أطلب التأجيل شهرين فقط.

- صعب يا بك.

- اطمئن يا عادل.. هذا الخطاب سيرفع قيمتك فى نظرهم.

- أخشى أن يلغوا العقد.

- سيتضمن الخطاب حاجتنا الشديدة إليك هذين الشهرين، لكن هناك شرط..

- تفضل..

- أن تدرب مكانك اثنين.

- أعدك بهذا.

فوجئ أن الساعة قاربت الرابعة.. شعر بالجوع. لم يفطر اليوم كما يجب.

أيقظته فى الصباح قبل موعده، وكادت تتشاجر معه.. بل تشاجرت بالفعل.. ألقى فى جوفه بضع لقيمات وشرب الشاى.. ما الذى جرى لنا؟

كنت من قبل أشتعل فرحاً إذا رأيتها.. أو سمعت صوتها.. يكفى أن أسمع اسمها يتردد على الألسنة حتى أسلِّم أذنى ويدق قلبى.

***

(٨)

انتظرت بلهفة وصبر شديدين عودتها فى نهاية العام، لكننى فوجئت بسفر رمزى إلى السعودية حيث بقى مع فدوى وساهر فى الرياض، وسافر والداهم إلى مكة والمدينة لأداء فريضة الحج.

فى نهاية العام الثانى عادت الأسرة فى إجازة، وبدت فدوى فى صورة أنضج وأبدع مما كانت، لولا بعض الحبوب التى ظهرت بوجهها وقدر من الرصانة، لا أعلم إذا كان مصدرها البلاد السعودية والنظم القائمة هناك أم هو النضج.

فكرت فى وسيلة لقضاء وقت أطول معها فلم أجد غير الإيعاز لأبى ليدعوهم إلى المزرعة حيث اجتمعت العائلتان لأول مرة منذ سنوات.

جلس الجميع أمام المنزل الكبير تحت تكعيبة العنب، يتذكرون ويضحكون.. أبى يتذكر والدكتور المهدى يضحك حتى تدمع عيناه، يضحك وهو فرحان لأنه لم يضحك منذ ترك مصر..

قال: الريف هو الأصل وهو مصر.. الأم صاحبة الجذور المغروسة بعمق فى أرض عريقة.. والحنين إلى مصر.. حنين إلى أرضها.

كان ينظر إلى الحمار بإمعان ودهشة، وينظر إلى البقرة والعنزات الثلاث، والجاموسة التى بدت كأم طيبة.. تعمل وتنتج الخير ولاتطلب إلا القليل.

طلبت من أختى نور الهدى أن تدعو فدوى لتمشية على الترعة وعندما تبلغ التوتة تنادينى كى أهزها.

قالت نور: من عينيه يا أبيه.

بعد لحظات قامت فدوى مع نور الهدى.. كانتا زميلتين وفى سن واحدة، سارت معهما كوثر.. بطرف عينى لمحتهم، وصلوا إلى التوتة.

.. اقتربت نور من الشجرة الكبيرة ورفعت رأسها.. تحدثت إلى

فـدوى، ثـم اسـتـدارت.. تظاهرت بالانـشـغـال والحـديث مع رمـزى..
سمعتها تنادى رمزى وتقول له :

- تعال لتهز التوتة.

أهذا ما اتفقنا عليه !.. بنات آخر زمن !

انقـضت إجازتهم بـسرعة، ولـم تتح الفرصة للقائنا بشكل يسمح بالتعرف أكثر على قلبها وروحها، وما يسرى فى وجدانها من أحاسيس، كل ما لاحظته أنها أصبحت تميل للاستماع إلى أغانى عبدالحليم حافظ

اختطفوا عدة أيام إلى الإسكندرية والفيوم، وسرعان ما أزف يوم الرحيل، وعدنا إلى ما كنا عليه قبل زيارتهم.

لم تتأكد علاقتنا، كل الذى بيننا معرفة وطيدة، ولابد أنها تحمل لى من الود ما تحمله الأخت لأخيها بحكم الجوار والعلاقة بين الأسرتين من قديم، ولأنها منذ صغرها ترانى وتعرفنى، وكانت تعاكسنى كما تعاكس إخوتها وإخوتى.

كنت أتمنى أن تكون موجودة بالقرب من قلبى وأمام عينى.. أسمع صوتها وأرى ملابسها منشورة على حبل الغسيل، وأراها وهى تمشط شعرها وتجلس فى الشرفة أو فى الحديقة، وألمح ذيل فستانها بعد أن تفتح الباب ثم تجرى لتدخل حجرتها حتى لا يراها الغريب.

كنت أتمنى أن تكون إلى جوارى لأتشمم عبير أفكارها وخواطرها وأمنياتها، وأفتح كل بوابات قلبى لتستقبل أنغام صوتها العذب.. كنت أتمنى.

كان فى البدء الحب، روح الحياة والجمال.. الحب روح المجد وتاجه.. إما أن تحب أو.. أو تموت.. ليس ثم طريق ثالث إلا أن تصبح شيئاً آخر غير الإنسان.. فأساً مثلاً أو سيارة أو مذياعاً.. حفرة.. نعم.. بإمكانك أن تصبح حفرة، وتمر الأيام فإذا لها باب يغلق، وتغدو مقبرة.

لم أكن أخشى غيابها، فهى فى أمان.. لن يراها أحد فى السعودية

ولن ترى أحداً.. سوف تعيش مصونة فى علبة محكمة الإغلاق.. وإذا كانت فى قلبها أية مشاعر إيجابية تجاهى فسوف تبقى..

نعم سوف تبقى.. كان شباكى يطل على الحلم الكبير الممتد بطول المسافة بين القاهرة و الرياض، وكانت صورتها تتدلى من عيونى إلى قاع قلبى.. أخشى أن أكون مخدوعاً على نحو ما.. لا.. اطمئن.. هى فى علبة محكمة الإغلاق.

سمعت أبى يقول وهو يمدح أمى:

- أكبر ثروة فى الوجود يطمع فى أن يحصل عليها الرجل.. هى المرأة الجميلة الصالحة.. إنها كنز لا تعادله كنوز الدنيا.

وأحسب أن فدوى هى كنزى.. وسوف يكون توفيقاً كبيراً وعطفاً من الله علىّ أن يجعلها من نصيبى.

فى نهاية العام الثالث عادت الأسرة جميعها. حصلت فدوى على الثانوية العامة ويجب أن تتقدم للجامعة.

لم أتحمس لأن أتقدم لخطبة فدوى إلا بعد حصولى على البكالوريوس، ولا بد من تقوية علاقاتنا العاطفية التى لازالت أخوية وربما أقل.

تفرغت تماماً للسنة النهائية فى الفنون الجميلة، ولو لم أكن مهتماً بالحصول على درجات عليا، لكان علىّ أيضاً أن أقضى الليالى الطوال مع اللوحات والمشاريع ومراجعة المحاضرات وتكثيف الاطلاع على المراجع العديدة.

كان الأساتذة يكلفوننا بالأبحاث وبالمشروعات ويمارسون معنا قدراً كبيراً من الحزم، مع التوجيه الدائم ودفعنا إلى بذل الجهد.. كانوا أساتذة عظاماً بحق وكنت ولاأزال أعرف فضلهم، حتى لو عارض البعض أساليبهم التربوية أحياناً.

بعد فراغى من الامتحانات، أعددت خطة لتقليل المسافة بينى وبين فدوى، وبدأت بالفعل بعض اللقاءات فى إطار الأسرة. لمست ترحيباً وتفهماً ولاحظت للمرة الأولى أنها سريعة التوتر، ولا تجد غضاضة فى

اتهام البعض بالجهل، وسهولة فى أن تصف شخصاً بأنه حمار، وهذا حيوان، وذلك جربوع لا يساوى ملابسه.

روضت نفسى على قبول ذلك مؤقتاً، واثقاً من أنى - بعون الله - سأخلصها من هذه الشوائب التى لا أعرف من أين لحقت بها.

بعد أسبوعين على رسم الخطة حضر إلينا الدكتور سيد المهدى ليدعونا لحضور خطبة ابنته على ابن خالها الذى كان معهم فى السعودية.

آه

حسبت أنها فى علبة مقفلة.. أليس هذا هو بعينه الحظ التعس؟!

هل هذا معقول؟!

مؤخراً فقط.. عرفنا أن ابن خالها يعمل فى السعودية وكان يزورهم دائماً هناك.. هم لم يذكروا ذلك من قبل.. ربما لم تكن ثمة مناسبة لذلك.

لا بد أن يكون هناك عنصر مجهول فى الحياة يظهر قبل النهاية بلحظات ليقلب الخطط على من رسموها.. دائماً هناك مجهول.. بينما الآمال تترعرع وتزدهر، والثمار تطل بوجهها الفاتن، وعندما تشرع الأيدى فى الاتجاه نحوها، إذا بهذا المجهول يطل، ويتخلى عن مجهوليته ليصبح معلوماً.. معلوماً جداً.

ما المكتوب؟ لا أعرف.. ولا أحد يعرف، بعض الناس يقولون إن المكتوب، هو المسجل فى اللوح المحفوظ قبل ميلاد الإنسان، ولكنهم لا يعرفون طبيعة هذا المكتوب.

وما النصيب؟.. لا أعرف ولا أحد يعرف.. إنه فى نظرهم هو المكتوب.

لكن الجميع يسرعون بالاعتقاد أن ما يحدث حتى لو كان خطأ هو المكتوب.. ويقولون: شوف النصيب.. جاءالرجل إليها من السعودية ليخطبها..

كنت أشعر أن فدوى ليس لها غيرى، وأنها نصيبى وأنا نصيبها، وليس فى الصورة غيرى لها وغيرها لى.

لكننا لكى نبعد عن أنفسنا الغم والكمد، نقول: لا تبتأس فهذا هو النصيب. لعلهم يقصدون إرادة الله.

عندما تتزوجنى هو النصيب، وعندما تتزوج غيرى.. فهو النصيب، وعندما تتركه لتتزوجنى، يقولون فى عجب: سبحان الله.. نصيب

علامات استفهام تظهر للإنسان كل يوم، وأغلبها يتعذر الإجابة عليه.. لعنة الله على.. ألم يكن من الواجب أن تكافح من أجلى، أن تقاوم.. تتعلل بشىء ما حتى تكون لى.. يبدو أنها لم تحمل لى حباً يدعوها للمقاومة.

آه.. لم تحمل حباً.. لم تحمل..

المطلوب الآن شغل الوقت بالعمل.. أى عمل.. لا.. ليس أى عمل.. لا بد أن يكون عملاً جيداً وهاماً، أمنحه كل وقتى واهتمامى وفكرى.

من المؤكد أن الله يريد بى خيراً، لأنه لو أبقى لى فدوى، لارتبطت بها، وبقيت إلى جوارها، أما الآن فإنى مشتاق للعمل، ولا بد أن أثبت ذاتى بقوة، وليس على أن أتأثر بحالة والدى المالية. الرجل لا يتأخر عن توفير كل ما أطلبه وزيادة.

كانت أول خطوة هى التحاقى بالدراسات العليا والتمهيد لرسالة ماجستير عن أحد الموضوعات الخاصة برسوم الأطفال.

انشغل رمزى بإعداد الماجستير، ولم أعد أراه إلا نادراً أما صلاح فكنت ألتقى به كثيراً، وقد عمل مفتشاً للآثار فى منطقة الهرم وافتتح محلاً كبيراً لبيع الآثار المقلدة والتحف وورق البردى وأيضاً منتجات خان الخليلى وبعض المشغولات النحاسية والأعمال الفنية المصنوعة من الخزف والرخام.

ساعدته فى تجهيز المحل وتصميم الديكورات وترتيب المعروضات، وأحرص على زيارته مرتين كل أسبوع على الأقل.

بعدها قررت أن أقوم برحلة طويلة إلى أوربا لزيارة المتاحف والكنائس والحدائق والأبراج والمعاهد الفنية والمعارض، والاطلاع على كل مناحي الجمال في هذه البلاد.. كنت في ظمأ شديد للتعرف على آليات الحياة في الدول المتقدمة..

قضيت عامين متجولاً بين باريس ولندن وروما وفينيسيا وميلانو وبون وزيورخ وفرانكفورت، وجنيف وختمت بفيينا.. شحنت البطارية شحناً جيداً وعدت سعيداً وجديداً ومحتشداً بالأفكار والتطلعات.. آمنت أن بلادنا عامرة بالكنوز والخيرات..مجرد خامة صالحة لكنها تحتاج إلى الإرادة والعمل، وطريقة جديدة علمية وعملية في إدارة الأعمال، بعيداً عن النظرة المادية التي تستهدف فقط الربح السريع.

عدت لأجد ساهراً لايزال يتخبط في الثانوية العامة وقد رسب فيها عدة سنوات، ولم يطلع من حفرتها بعد، بينما كانت كوثر في السنة الثانية بكلية الهندسة، وحصل زياد الشقيق الأصغر على الثانوية والتحق بالزراعة التي استهوته من طول مرافقته لأبيه، في حين كانت نور وفدوى في السنة النهائية بكلية الآداب يدرسون الأدب الإنجليزي، وأصبح أخي الأكبر فائق مقدماً في الشرطة.

(٩)

ذهب يسرى إلى أرض المعارض مبكراً وقبل الافتتاح

اطمئن على جناحه بنفسه.. ألقى النظرات الأخيرة على العرائس والدببة والكلاب.. الألعاب المختلفة.. الكتب والبوسترات.. المطبوعات، كتالوجات عن محتويات مدينة «أحباب الله» التى يستعد لافتتاحها.

توالى حضور أصحاب الأجنحة والمسئولين ثم حضر الوزراء.. أخذ الجميع يتبادلون التهانى والحوارات والبسمات فى انتظار مقدم رئيس الوزراء.. وقعت عينا يسرى على إحدى السيدات فتحايل برشاقة ودون ابتذال أو اندفاع حتى اقترب منها، وكأنه يراها صدفة.. ورأته، وتبادلا التعبير عن المفاجأة.

- أهلاً مدام عدلات.

- أهلاً بك يا باشمهندس.

- أنا سعيد أن أراك بعد هذه السنوات.

- وأنا أيضاً.

- واضح أنك تتناولين دواء ما يردك كل سنة عشر سنوات.

ضحكت عدلات بحماس وابتهاج، فاتحة فاها إلى أقصى اتساع حتى بدا جميع حلقها.. أحمر ومضيئاً تتصدره منظومة أسنانها البلُّورية.

- أنت فنان يا أستاذ يسرى.

- أنا فقط أفهم فى التحف والجمال.

عادت تضحك وعلت خديها حمرة شهية. شعرها البنى الناعم تطوح خلف ظهرها فى بساطة ونزق.. سأل يسرى عن زوجها الأستاذ ذكرى.. استدارت حولها.. دار معها ذيل فستانها الواسع كالتنورة.. قالت: كان هنا منذ قليل.

- هل لكم جناح هنا ؟
- نعم . . في الصالة الأمامية .
- وأنت ؟
- في الزاوية . . هناك . . بعد جناح أمريكا .

كان جناح أمريكا كبيراً وممتلئاً بالمعروضات وكذلك كان جناح اليابان والصين .

قالت عدلات : أعرف أنك تزوجت .

- وأنجبت .
- كم ؟
- ثلاثة . . ولدان وبنت .
- ربنا يخلي .
- هل من جديد ؟
- ليس هناك نصيب .
- الأولاد لا يمثلون الجزء الأهم في السعادة .
- أنت لا تخدع إلا نفسك .
- صدقيني يا مدام عدلات .
- أصدقك في كل شيء إلا هذه .
- هناك المال والحب وتحقيق الذات والمتع الحسية والروحية .
- الأولاد هم روح الأسرة وهدفها الدائم .
- لا أختلف معك ، ولكنك تنظرين للأولاد هذه النظرة لأنك بدونهم . . ولو كان لديك أولاد ، لما ذكرتهم ضمن أسباب السعادة . . وإذا سألت المريض عن السعادة ، لا يقول لك الأولاد أو المال ، وإنما يقول لك الصحة هي السعادة ، وعندما تسألين الفقير عن السعادة لا يقول الصحة والستر أو الأولاد ، وإنما يقول : المال هو السعادة وهكذا . كل إنسان يحسب نفسه غير سعيد لغياب عنصر معين .

- قد يكون كلامك معقولاً، لكن قل لى.. لماذا لم يسمح الشرع بتعدد الأزواج؟

وانفرط يسرى - بعد لحظة ذهول - فى الضحك، وهو ينظر إليها ويضرب كفاً بكف دون ضجة، ولم يمنع هذا من أن ينظر إليه بعض الضيوف وسألها: ولماذا تفكرين فى هذا الأمر؟

- إننى أحب ذكرى، ومن الممكن أن أبقى معه وأتزوج غيره لأنجب أولاداً.

- إذن.. فأنت..

هجم عليه ذكرى فى هذه اللحظة قائلاً:

- أهلاً بالفنان الذى هجرنا دون رحمة.. سلم عليه بحرارة..

- قال ذكرى:

- أنت عفريت، لقد رأيت جناحك.. إنه رائع.. ألف مبروك.

قال يسرى: أشكرك.. وأنا مشتاق جداً أن أرى جناحكم..

- ليس الآن، فقد سمعتهم منذ دقيقة يقولون إن رئيس الوزراء وصل عند البوابة ويحيى الآن مستقبليه..

أمسكت بيده عدلات دون أن يراها ذكرى، وهمست:

- أريد أن آراك.. إذا لم نلتق اليوم فسوف أنتظر منك مكالمة غداً.. لا تنس.

تم الافتتاح الرسمى، وقام رئيس الوزراء بالمرور على الأجنحة ومقابلة أصحابها وسؤالهم عن النماذج المعروضة وكمية الإنتاج، وأهمية فتح الأسواق للمنتج المصرى، وقبل ذلك دقة الصناعة وجودتها والحرص على جمال التشطيب والتغليف، استقبله يسرى على باب جناحه وشرح ظروف المصنع وإنتاجه وخططه، وعبر له رئيس الوزراء والوزراء المرافقون عن إعجابهم بإنتاجه وحرصه على التطوير والتجديد.

بعد انتهاء زيارة رئيس الوزراء، بدأت الوفود الأجنبية والصحفيون ورجال الشرطة والمسئولون يغادرون.

حاول يسرى أن يعثر على عدلات، لكن الزحام كان شديداً، والاضطراب كان زائداً فى ركوب السيارات واندفاعها للخروج من البوابات، وما أن وضع قدمه فى السيارة حتى شرع يفكر فى عدلات.. السيدة الجميلة الرشيقة التى كانت أغلب العيون متعلقة بها تنثر عليها نظرات الإعجاب النهمة.

***

(١٠)

- كنت قد بدأت العمل بعد عودتي من الخارج في دار الألفي لنشر كتب الأطفال، أصمم أغلفة الكتب ورسومها الداخلية. تفتحت شهيتي للعمل.. كان صاحب الدار هو ذكرى الألفي.. إنسان مهذب وفنان حقيقي.. هادئ جداً.. كثير السفر، تتولى عنه زوجته عدلات إدارة العمل وتتفق على الكتب وتحدد الأسعار والمكافآت.. جميلة جداً وقوية الشخصية.. تتمتع بذهن صاف وعيون مفتوحة وحضور غير عادى.. قراراتها دقيقة وسديدة، لطيفة جداً وأنيقة في كل كلمة، وكل تصرف، لا تنطق إلا حين يقتضى الأمر ذلك، فرضت على الجميع احترامها وحبها..

وجدت متعة حقيقية في العمل معها.. كنت أقضى ساعات طويلة في المكتب حتى أفاجأ بهطول المساء.

لم أتخل عن الدراسات العليا.. كان ثمة شعور في داخلي بأني أقل مما أتمنى، وأن العالم كبير وفسيح، وخطوات الإنسان على الأرض أقل من خطوات نملة على جبل هائل، ويتعين ألا تكون خطواتي في حجم خطوات نملة، ومن الصعب أن تكون في اتساع خطوة غزال أو فهد، أنا لا أميل إلى أى منهما، أنا أحب الأرنب.. الأرنب حيوان جميل.. نظيف وأليف وفيه بعض صفات الأطفال.. هم يحبونه وأنا أيضاً وأنا أحب كل ما يحبه الأطفال.. ليتنا نعيش أبداً.. أطفالاً. ليتنا، تحتاج بعض الحيوانات منا إلى كثير من التأمل والقرب والحب والفهم، وهذا هو السبيل في نظرى لكى نكون أطفالاً إلى نهاية العمر.. بعض الناس يفضل ألا يفكر إلا في فهم طبيعة الذئاب.

ما هذا الذى يتسلل إلى عقلي ويبعدنى عن عدلات؟.. المرأة المثال.. لو لم تكن متزوجة، لما أضعت ثانية واحدة لأفكر في الزواج منها..

يجذبني هذا الهدوء الرصين والتمهل قبل الإقدام على قول أو فعل مع الجمال والأناقة.. والدقة اللامتناهية في حساب كل شيء. كنت كلما غابت عني تذكرت راكيل ولش أو صوفيا لورين، وأحياناً أراها جينا لولو بريجيدا، إذا مسّت بالكحل عينيها.

دخلت عليّ مرة فوجدتني أرسم صورتها.. التمعت عيناها بالرضا والسعادة.

- لمن هذه الصورة؟

قلت : لإحدى قريباتي.

تراجعت الابتسامة تراجعاً منظماً ومحسوباً.

- هل تحبها؟

- لا

- لماذا إذن رسمتها؟

- مجرد لوحة.. لا أحب أن أتوقف عن الرسم.

- ودراستك؟

- قاربت السنة التمهيدية على الانتهاء.

- هل استقر رأيك على موضوع الرسالة؟

- استقر على الموضوع العام.. أما التفاصيل فليس بعد. انشغلت بالنظر من النافذة إلى الحركة الدائبة في ميدان مصطفى كامل وشارع قصر النيل.

سألتها : متى يعود الأستاذ ذكرى؟

- أوائل الأسبوع القادم.

واجهتني.. بدت كأنها تود لو تقول شيئاً، لكنها في هدوء استدارت ومضت إلى الباب.. فتحته وخرجت وأنا أتأمل القوام الفريد.. قبل أن ينغلق الباب تماماً، تحولت فجأة إليّ.. فسقط شعرها.. سألتني:

- هل أنت متأكد أن الصورة لقريبتك؟

سؤالها مفاجأة أربكتني. ضحكت.. لم أرد، ولم تنتظر كي أرد..

مضت وقد تركت فى رأسى الفكر والأسئلة.

بقيت أياماً أفكر فيها.. تسللت الجميلة المثيرة إلى أحلامى.. رأيتها تأتينى في شقة غريبة لم أرها من قبل، وقضينا معاً وقتاً رائعاً ومجنوناً، أشعلته الغرائز الجائعة.. لعنت أحلامى.. لكنى فكرت فى وسيلة تحقيق هذه الأحلام مادام الزواج منها غير ممكن، والبعد عنها حرمان لا مبرر له.

كانت قادرة على أن تأتى ولا تأتى، تلوح وتختفى، تجذبك وترميك. هذا النوع من النساء اللاتى يمتلكن قدرة سحرية للتحريض على فعل أى شيء حتى القتل من أجل لحظة رضا منهن. ساحرة حقاً وملهمة.. أشعلت فيَّ طوال عملي معها لحظات دائمة من التوتر والشوق.. وأنا خالى القلب تقريباً وقابل تماماً للكسر، ومؤهل كى تحملنى الرياح بعيداً وتلقى بى فى جب عميق، أو فى فيافى بلا نهاية وبلا حياة.

بعد عدة أشهر اتصل بى صلاح علام يدعونى للقائه. حددت له موعداً فى اليوم التالى.. زرته فى معرضه الفرعونى.. التقيت هناك بشخص أحسب أنى رأيته من قبل، ولا أتذكر متى كان ذلك.. قدمه صلاح:

- الأستاذ ناجى شلتوت، مرشد سياحى وزميل دراسة.

- أهلاً..

قدمنى له صلاح ثم قال: الموضوع بإيجاز أن والده عنده مصنع لعب أطفال ويبحث عن مدير للمصنع.. صحته فى السنوات الأخيرة ليست على ما يرام.. اندفع ناجى قائلاً فى عبارات نصفها عربى ونصفها إنجليزى: الوالد طلب منى أن أعاونه، لكنى أولاً: لا أفهم فى هذه الأعمال، ثانياً: أنا أحب الإرشاد السياحى وأحب التعامل مع الأجانب.

كنت أستمع وأنا أشعر بعصفور الفرح يرفرف سعيداً بأعماقى.. سألنى صلاح عن استعدادى..

- أرى المصنع أولاً وألتقى بالوالد.

اندفع ناجى وقد بدا كمن يحاول التخلص من المهمة :
- هذا ضرورى .. المهم .. هل أنت موافق؟
- من حيث المبدأ .. نعم .. لكن العبرة بظروف العمل وتفاصيله .
- سوف تتعرف بنفسك على كل شيء .
- أين الموقع؟
- في كفر الجبل .. يعنى نصف كيلو تقريباً .
- هل هو مِلك الوالد؟
- نعم .
- وهو الذى يديره؟
- نعم .
- والآن؟
تدخل صلاح :
- خلِّ الأسئلة للزيارة ولقاء الحاج إبراهيم .
- معقول .
سألنى ناجى : متى تحب أن تزور المصنع؟
تمهلت لأستعرض مواعيدى اليوم وغداً .. لكن صلاح هجم : الآن، هيا بنا .
وأشار إلى مساعده فى المعرض :
- نصف ساعة يا بكرى .
المصنع قديم .. يعمل فيه عدد من العمال، يركِّبون ألعاباً وعرائس بشكل يدوى .. ارتجالى وبدائى .. كلها تقريباً متماثلة وساذجة .
المساحة كبيرة، والإمكانيات لا بأس بها، لكنه يحتاج إلى إدارة شابة وعلمية وصيانة وبعض التجديدات والإضافات .
طلبت لقاء الحاج إبراهيم .. ذهبنا إليه فى منزله .. كان يرتدى جلباباً أبيض، له كرش لا يناسب عوده، قال إنه لم يكتشف إلا مؤخراً أنه يعانى من تليف فى الكبد والطحال، وقد منعه الأطباء من بذل

أى مجهود بدنى أو ذهنى.

قص علىَّ تاريخ المصنع وتأسيسه قبل ثلاثين عاماً، كان يتمنى أن يكون من صلبه من يصلح لإدارته.. ناقشنا التفاصيل.. قبلت العمل ودخلت المصنع مع الحاج إبراهيم الذى أصر على مرافقتى، على وعد أن يلزم الراحة بعد ذلك.

أوضحت للحاج إبراهيم طبيعة عملى عند دار الألفى للنشر، وأكدت له أنى لن أقطع علاقتى بها، وإن كنت سأكتفى بساعتين فقط ثلاثة أيام فى الأسبوع.

مضيت فى الأيام التالية أفحص المصنع جزءاً جزءاً وعملاً عملاً، وأتعرف على العمال شخصاً شخصاً، ومعى كبير العمال السيد طربوش.. سألت كثيراً حتى تعرفت على معظم شئونه، وشرعت فى وضع خطة لتطويره.. وكلما عرضت فكرة على الحاج إبراهيم وافق مؤكداً أنه ارتاح إلىّ من أول دقيقة، وأنه لن ينسى جميل صلاح علام.

شرحت لعدلات الموقف، فقبلت شاكرة لى صراحتى ووضوحى وأشارت إلى رغبتها فى استمرارى مع الدار.. لم أكن فى حاجة إلى دعوة. من دواعى سرورى أن أكون بالقرب منها.. ما أدهشنى حقاً أنها لم تفكر فى تقليل الراتب بعد أن قلّت ساعات عملى معهم.

سارت كل الأمور على نحو مرض، شهد المصنع لمسات جديدة أثارت إعجاب الحاج إبراهيم شلتوت وولده ناجى، وتقدم رمزى لخطبة نور الهدى التى عينت مدرسة، ونجحت فدوى فى اختبار المذيعات بالتليفزيون وتسلمت عملها على الفور، لكن والدتها مرضت مرضاً شديداً، وانشغل بها الدكتور سيد وسافر معها إلى الخارج فى عدة رحلات للعلاج دون جدوى.

أنا لست ممن يحسدون أحداً على ما يتمتع به من نعم ولا ممن يتمنون فشل الآخرين ولا حتى المنافسين، لكنى لم أخف رضاى عن سماعى من نور الهدى باضطراب العلاقات بين فدوى وخطيبها، ليست الأيام

إلا حبات من الرمال، تلتقطها رياح الزمان وتجرى بها غير عابئة بالمدن والذين يعمرونها، وتظل الأيام تحمل لنا جديداً فى إثر جديد ولا تكف عن ذلك، لتبالغ أحياناً فى تفريغ كيسها، وأدهش كيف يمتلئ كل يوم بكل هذه الأحداث والمتغيرات التى تفجر فى الناس جميعاً مختلف المشاعر.

كرات هائلة تقذفها قوى جبارة، فتنطلق بكل شدة مرتطمة فى البشر الذين لا يتوقعونها فى الغالب، فتلقى فريقاً منهم على الأرض، وتصيب فريقاً ثانياً، وتقتل ثالثاً ويضحك لها رابع ويذهل خامس وقد يرد سادس.

يحدث هذا يومياً وبلا توقف حتى لأحسب أن الناس تخلق من المشكلات والضجيج ما يفوق قدرتها.. العالم هو الناس.. وهم الفعل والفاعل والمفعول.

عندما تنتابنى مثل هذه الخواطر، لا أملك الفرصة الكافية كى أحسن التفكير فيها، ولعلى لا أستطيع، وما هى إلا لحظات حتى تجذبنى أفكار أخرى وينادينى عمل هام لا يتركنى لحظات، وكأنها خطة محكمة ودقيقة ألا تفرغ لشىء، أنت دائماً تجرى وتصعد الدرج وتهبط، وتقع وتنهض وتنام لتصحو، وتصحو لتصعد ثم تهبط وتنام.

فى اليوم التالى.. اتصلت بى عدلات فى المصنع وطلبت منى الحضور لأمر هام، ولم ترد أن تخبرنى عن شىء ولو بالتلميح.. مضيت إليها وأنا أتوجس.. هل تكون قد عزمت على أن تفتح لى باباً عاطفياً يخفف عنى بعض ما بى.. أنا أعرف أن مثل هذه الأبواب لا تفتح إلا بالطرق الطويل والإلحاح.

تذكرت الحلم.. هل يكون قد أوشك على التحقق.. ليس من شك أن عدلات ليست ككل النساء.. هل تراها حلمت هى الأخرى، أم أنها كانت تعد لذلك فى الواقع وقد فشلت خطتها لأنها تنتظر مبادرة منى.. قلبى يدق بحماس. زادت دقاته وأنا أتقدم من بابها.

استقبلتني بابتسامتها الرشيقة ونظراتها النافذة.. قالت:

- ألف مبروك.. لا بد أن نحتفل بهذه المناسبة.

- ما المناسبة؟

- أول مرة تحصل الدار على جائزة دولية.. اتصل بي ذكرى من جنيف وأبلغني بفوز غلاف أحد كتب الدار بالجائزة الأولى في المعرض الدولي لكتب الأطفال وهو من رسمك يا أستاذ يسرى.. لا بد أن نحتفل.

أخرجت زجاجة وقدمت لي كأساً.. شكرتها.. كنت موزعاً بين مفاجأتين.. ضياع كل ما في رأسي وفوزنا بالجائزة.. قلت لها:

- نحتفل جميعاً بعد عودة الأستاذ ذكرى.

أصرت على أن أشرب، فشربت.. كانت سعيدة ومنتشية وتحدثت كثيراً على غير عادتها، واتصلت أمامي ببعض الصحف تحدثهم عن الخبر وتشيد بالرسام.. تمنيت أن أحتضنها وأقبلها طويلاً وأن تبقى في صدري يوماً كاملاً أو عمراً.

تركتها وأنا أتساءل: متى يفتح هذا الكنز؟.. وكيف يُفتح؟ ولماذا أبدو عاجزاً تماماً عن فعل أي شيء؟ وهل عدلات هي الغامضة دون كل النساء أم كلهن كذلك؟.. حتى لو كلهن كذلك لظلت عدلات شيئاً آخر.

(١١)

عاد يسرى وزوجته والأولاد متأخرين بعد زيارة حماه وأسرته. طالت الجلسة، وحفلت بالأحاديث الشجية، كان أغلبها ذكريات.. استحضر كل فرد ذكرياته الطريفة، وعبرت بالأفق الحى ملامح الذين رحلوا تؤنس الذين لازالوا يدبون على الأرض، يطل عليهم عبق الماضى وحلاوته، وأشكال أبنيته الأخلاقية الراسخة، كلما تذكروا أصحابه الذين حرصوا على القيم والمبادئ حتى لو عاشوا حياة الشظف والبؤس.

كانت أم فدوى قد رحلت بعد رحلة مرض طويلة، بدأت بعد عودتهم من السعودية.. معظم ما اكتسبه الدكتور سيد من أموال ذهب على علاجها فى مصر ولندن وأمريكا. لكن الأجل كان فى طريقه وفى موعده لا يعبأ بالبشر وتشبثهم بالحياة، وأغلبهم مؤمن به، واثق بقراره الحاسم.. لكن الله خلق الطب والأطباء، وخلق من قبلهم ومن بعدهم الأمراض التى تكبر كل يوم وتتجدد وتتنوع لتواصل العبث بالبشر، وتدفعهم للبحث بدلاً من اليأس.

لاحظ يسرى أن القطة تقف على الباب قال: النهار للقطط والليل للكلاب، فلماذا أنت حتى الآن ساهرة.. تركت له هانم ورقة كتبت عليها: اتصل الأستاذ/ صلاح يخبرك بذكرى وفاة الحاج إبراهيم شلتوت.. علت ملامحه علامات الدهشة.. توقف عن خلع الجاكتة.

اتجه يسرى إلى النتيجة دون وعى، قلَّبها بحثاً عن ١٤ / ٢.. عثر على التاريخ، شرعت فدوى تفك أزرار البلوزة لتبدو قمم صدرها المتورد، سألته بلا مبالاة: ماذا وجدت فى الورقة؟

- يذكرنى صلاح - الله يبارك فيه - بذكرى وفاة الحاج شلتوت التى تحين بعد غد .

- من الحاج شلتوت؟

- الحاج إبراهيم شلتوت الذى اشترينا منه المصنع .
- ياه . . ألا يزال يذكر . . الله يرحمه .
- أنسيت أننا فى كل عام نحتفل بذكراه إكراماً للرجل الطيب ؟
- ولماذا يذكرك به ؟
- أولاً لأنه يعلم أني وصلت من السفر من يومين فقط وربما أكون قد نسيت ، وثانياً لأنه حريص على صداقته بناجى شلتوت وبنظرته لى .
- يا سيدى . . الذى مات ارتاح .
شرع يخلص عنقه من الكرافته ، ويتنفس بملء رئتيه . .
- تصورى إنه مات منذ عشر سنوات . . مرت الأيام بسرعة غريبة .
أذكر استقباله لى فى بيته ، كأنه أمس .
شرد يسرى ثم قال :
- النسيان رحمة . . ومرور الأيام بسرعة أيضاً رحمة .
- لم تجبنى .
- وهل سألت !
- بهذه السرعة نسيت .
- النسيان رحمة .
- عندما يخص أخي لا يكون رحمة ولكنه هروب
- قلت لك يا فدوى يا حبيبتى . . أخوك لا يصلح للعمل .
- ساهر شاب متعلم وشخصية .
- نعم هو متعلم وشخصية ، ولكن لا يُعتمد عليه . . وليس عنده أى إحساس بالمسئولية .
- لا تقل هذا الكلام عن أخي .
وقفت فدوى عارية بعد أن خلعت معظم ملابسها ، وفتحت الدولاب لتلتقط المنامة الحريرية الحمراء .
- نزيه ابن عمك هو الذى لديه إحساس بالمسئولية .

- طبعاً .. وهل تشبهين ساهر بنزيه !
- لا .. كيف أجسر على هذا !
- يا فدوى.
دنت منه وهى تمسك بالمنامة وجسدها الفاتن يتراقص أمامه، بينما ترفع صوتها مؤكدة أنه لا يحب أهلها.
- يا فدوى.. لا داعى لنختلف.
- بل يجب أن نختلف
- لماذا نختلف؟
- لأنك تفكر فى نفسك وأهلك فقط.
- أنت تستطيعين أن تعينى ساهر فى أرفع المناصب.
- هل تسخر؟ سأفعل وسوف ترى.
- هذا يسعدنى، هو مهما كان الأمر صهرى.
- بدلاً من الطرق على الأبواب الغريبة، لدينا الفرصة المناسبة.
- أين هى؟
- فى المصنع
- يا فدوى.. هل نسيت أن سا..
سكت يسرى، فاندفعت فدوى تقول:
- أكمل.. لماذا توقفت؟
- لا.. لا داعى.
صرخت فيه:
- أنت تسعى لجنونى يا رجل.. أطلب منك أن يعمل ساهر فى المصنع تقول لا.. وعندما أسألك عن السبب لا تجيب.. هذا يؤكد رأيى.
- ما هو؟
- أنت تكره أهلى.
- يا فدوى.. كفى عن الاستفزاز.
- أنا لا أستفزك.. أنت الذى لا تحرص على أسرتنا وتفاهمنا..

تنهد يسرى و لاذ بالصمت، فاستأنفت:

- غداً سيذهب ساهر إلى المصنع.. قل لطربوش أو لغيره أن يجهز له مكتباً مناسباً يليق بصهر صاحب المصنع.. أنا وعدت ساهر بذلك.

استدار يسرى بعد أن لبس منامته وتوجه إلى موضعه من السرير وقال بهدوء:

- هذا لن يحدث يا فدوى.
- مستحيل.. أنت غير طبيعى.
- لا تزيدى كلمة واحدة.
- أنا مندهشة.
- لا تندهشي.

قالت بنغمة وحشية: يسرى.. إذا لم يعمل ساهر فى المصنع سوف..

قاطعها يسرى قائلاً:

- فدوى.. فكرى قبل أن تتكلمي وتهددى، أنا لا يعنينى تهديدك فقط أرجو أن تفكرى جيداً.
- فيم أفكر؟
- فى أخيك.
- أنا أفكر دائماً فيه.
- هذا غير صحيح.
- أنت الليلة لست طبيعياً.
- بسببك.
- بسببى!
- نعم.. أنت لا تعرفين أخاك.
- أنت تعرفه أكثر.
- نعم.. ساهر ليس مثل رمزى.. ساهر مدلل جداً.. بقى فى الثانوية العامة عدة سنوات، وفى الجامعة عدة سنوات.. وكان فى كلية خاصة، تنقل قبلها بين ثلاث كليات.. ولم يحصل على المؤهل

إلا من سنتين.. عمل عدة حوادث بسيارته، وحادثة بسيارة صديقه وحادثة بسيارة أبيه.. أصدقاؤه فاشلون، منهم واحد فى السجن وواحد هرب وواحد عليه قضية، وعلاقاته معروفة بالراقصات وبنات الليل، ولا تحسبى أنى لم أعرف بسرقته عدة آلاف من حساب أبيه فى البنك رغم التكتم الشديد على هذه الحادثة.. هل أكمل؟.. أم يكفى هذا القدر.

تشاغلت فدوى بارتداء المنامة وقد شعرت فجأة بالبرد..

قالت: ياه.. يبدو أنك مشحون ضده تماماً.

- ضده لا.. لكنى مشفق عليه.. كيف سيعيش وسيتزوج ويربى أولاده، وهو غير ملتزم، أنا ليس عندى استعداد على الإطلاق للتعامل مع شخص غير ملتزم.. لا يحس بالمسئولية.

- أنت لست أنانياً فقط ولكنك حاقد.

ضحك يسرى فى أسى وألم.. ثم قال:

- ساهر متعلم ووسيم، لكن علاقاته المشبوهة هى التى ضيعته وجعلته غير محسوب وبدون وزن.

- هيا اذهب ونم فى الحجرة الأخرى.

- هل غضبت؟

- لا.. إننى سعيدة جداً بما قلته عن أخى.. سوف أتصرف.. غيرك كثيرون مستعدون لتقبيل يدى لأقبل خدماتهم.. أنت تحسب نفسك مهماً.. تحسب مصنعك هو كل المصانع .. أنت مخدوع.

- هل أعتبر كلامك من وراء عقلك؟

- هذا يؤكد أنك مخدوع.

- كنت أمنّى نفسى ونحن فى الطريق أن نقضى معاً ليلة جميلة.

- أرجوك.. اذهب ونم فى أى مكان آخر.. لا أريد أن أراك.

- سأعطيك ظهرى.

صرخت فيه وهى تجلس على السرير وتضع رأسها فى كفيها

- اذهب بعيداً عني.. اذهب.

خرج يسرى في هدوء وهو يشعر بالرضا عن نفسه لأنه لم يخضع لثورة فدوى ولا غضبها، ولم يوافق على عمل ساهر..

- فلتغضب كما تشاء.. في الغد سوف أصالحها وأرضيها، وربما بعد الغد.. لكن لا.. ساهر لا..

مضى إلى غرفة الأولاد وقلبه مثقل بكلماتها، مفكراً في عقلها سهل الاضطراب.

كانوا يغطون في نوم عميق. الثلاثة معاً في سرير واحد فقد ترك خالد وسها سريرهما وانتقلا إلى جوار رامي.. تمدد على الفراش الشاغر.. لم يستطع أن ينام.. فكر في المصنع وساهر والمرحوم شلتوت.

(١٢)

- بعد وفاة الحاج إبراهيم التى كانت متوقعة بسبب ما أصاب كبده استمر العمل فى المصنع بصورة مرضية، حاولت التحدث مع ناجى فى موضوع عملى بالمصنع وعدم رغبتى فى الاستمرار، لكنه كلما أحس أني أنوى التحدث فى هذا الموضوع يسرع قائلاً:

- المصنع مصنعك وأنت حر.. تصرف فيه كما تشاء.

بعد أيام بدأت أخوات ناجى تطالبن بنصيبهن في المصنع، واتفق أزواج البنات على بيعه لأنه لا يتواءم مع خبرة أيٍ واحد منهم.

ومنهم من قال: من أدرانا إذا كان المدير أميناً أو غير أمين، ربما كان يسرقنا ونحن لا نفهم فى هذه الأمور.

سألنى ناجى عن رأيي.. قلت: هم على صواب، وحاولت فى مناسبات سابقة أن أبلغك بعدم قدرتى على الاستمرار.. لكنك...

- إذا أبقينا على المصنع.. هل تستمر؟

- لن يبقى المصنع.. المصنع فيما يبدو كان مرتبطاً بوالدك، وعندما اختاره الله، شرع المصنع فى البحث عن نهايته هو الآخر لقد أدركت هذا الموقف منذ وفاة الحاج إبراهيم.

- ورأيك؟

- اعرضوه للبيع.

- كم يساوى فى نظرك؟

- نلجأ للمتخصصين أصحاب الخبرة.

- نحن نوكلك.

- لا داعى.

- لماذا؟

- لأنى ربما فكرت فى شرائه.

- اشتره إذن.
- بعد أن تعرضوه على الآخرين، وأنا أدفع أعلى سعر.
- أنت أولى بالشُفعة، فلك أقل سعر.
- سيهاجمك الأهل.
- اسأل عن الأسعار وقل لنا.
- أبداً.
- نحن نصدقك.
- من أنتم!
- ..

استمر وجودى بالمصنع، بينما رجال الأعمال والسماسرة يحضرون للمعاينة، وأغلبهم يريد الأرض ولا يريد المصنع، وكان التقدير تقريباً في معظمه على هذا الأساس. والسيد طربوش يتوسل إلى ناجي وأخواته كي يبيعوا المصنع لشخص لا يغلقه أو يسرح العمال، وهم مصرون على بيعه في مزاد لمن يدفع أكثر حتى لو عمله بركة، أو مقلب قمامة.

عندما علم أبى برغبتى، باع لى قطعة أرض على الطريق الدائرى ودخلت المزاد، وظللت أرفع فوق المشاركين فى المزاد بنسبة قليلة، حتى ضاقوا وتوقفوا عن المنافسة، وامتلكت المصنع بالأرض.

بدأت العمل فوراً فى بناء وحدات جديدة وإضافة بعض الآلات وعينت مجموعة من شباب الفنيين، واتفقت مع شركة ساكوسى اليابانية على أن ترسل لى ألعاباً مفككة، وأقوم بتجميعها داخل مصر اكتساباً للخبرة وتدريباً للعمالة.

أصبحت صاحب ومدير مصنع للعب الأطفال، يتقدم بقوة ويطور نفسه شهراً بعد آخر، ويوفر الألعاب بسعر زهيد.

اعترض أبى على الأسعار وكذلك إخوتي وصلاح ورمزى وساهر.. إنها أسعار التكلفة، لكننى كنت متنبهاً تماماً لذلك.. وأعرف مدى جشع التجار وضخامة هامش الربح الذى يحصلون عليه.. فالتجار فى

مصر يختلفون عن التجار فى معظم دول العالم، والتاجر يكبر فى هذه الدول بنسبة ١٠٪ فى السنة والتاجر فى مصر يكبر بنسبة تتجاوز ٥٠٪، هذا إذا تاجر بشرف أما إذا كان غشاشاً ومزوراً ولصاً، فإنه يكبر بنسبة قد تصل إلى ٢٠٠٪ كما يحدث بالفعل، وقصص الحيتان فى البلد لا تخفى على أحد، والبنوك تعرف أسماءهم جميعاً..

العمل يمضى بسلاسة والعمال يتزايدون، والإنتاج يُسوَّق بالكامل والطلبات لا تتوقف.. أطمئن بنفسى على شراء الخامات ودقة التنفيذ وجمال الشكل.. وكلما مر عام رفعت الأسعار بنسبة لا تزيد عن ٨٪ بسبب ارتفاع أسعار الخامات والمصروفات الإدارية وأجور العمال ومصروفات النقل والشحن والضرائب والمفاجآت الحكومية العجيبة ورسومها التى لا تنتهى.. قررت عدم الاستمرار فى الدراسات العليا..

شغلنى إنتاج المصنع ليل نهار، لكنى لم أنقطع عن دار الألفى ولا عن رؤية عدلات.. ثمة شىء خبيث فى نفسى.. خاطر يشعرنى أن الثمرة الناضجة يوماً ستقع، ولابد أن يكون فمى مستعداً لالتقاطها وابتلاعها فى لحظة.

زحام العمل وضغطه حالا دون استمرارى. تحدثت إلى عدلات واعتذرت لها.. طلبت أن أظل متعاوناً معهم دون الحضور.

حاولت أن أقطع علاقتى تماماً. لم أستطع.. كانت كعهدها قوية وقادرة على النفاذ، فأذعنت.. مضت ترسل لى كل سبت بعض الأعمال مع سائقها على أن يأخذها السبت التالى ويسلمنى الجديد.. وهكذا.. إلى أن توقف السائق عن الحضور، وبعد أسابيع جاءنى صوتها الرنان عبر التليفون:

- لقد افترقنا
- من ؟
- أنا وذكرى.
- مستحيل.
- لا شىء مستحيل
- ما السبب ؟

- بلا سبب .

- لابد أن يكون هناك سبب .

- صدقني . . كل ما هنالك . . أن تفكيرد لا يعجبني .

كنت مذهولاً ، ولم أكن أتصور أن يتوفر لي بهذه السرعة ما تمنيت وسألتها - متى حدث هذا ؟

- منذ أسبوعين .

قلت في سري - وأنا نائم في العسل . . كان يمكن أن يخطفها غيري هل يا ترى خطفها غيري ؟ ! . . لا أظن . . لو خطفها أحد لما اتصلت .

سألتها : هل يمكن أن أراك ؟

- يمكن

- متى ؟

- الصيف القادم .

وضحكنا . . لم أعثر على أثر للأسى أو الحزن في نبرات صوتها .

- نتناول العشاء غداً .

سكتت . . ثم قالت :

- موافقة . . بشرط .

- ما هو ؟

- لا تحدثني عن ذكرى .

- لماذا ؟

- أصبح ذكرى .

- سأمر عليك في الثامنة .

قبل أن يطلع فجر اليوم التالي كنت قد عرفت أن ذكرى طلقها بهدوء بعد أن اكتشف علاقتها بأحد الصحفيين . . أنا إذن آخر من يعلم . . ومن أنا حتى أعلم . . ها نحن نعود إلى المرأة اللغز والسؤال الحائر . . هل عدلات هي كل النساء ! ! الجمال والسحر ، اللذة والغموض والتوتر . . روعة العاطفة وعنف العاصفة .

لم أنم.. كنت أتمناها من زمن. تبهرني شخصيتها ولباقتها وملامحها وتفكيرها وكل شيء فيها.. أعتبرها مثالية.. إنها عمل فني رائع.. يا خسارة ماذا أقول لها الآن.. الموقف دقيق.. ماذا أفعل؟.. مسحوق أنا بين الإقدام والإحجام، بين اللهفة عليها ومحاولة الابتعاد عنها.

كانت عدلات كريمة جداً طوال عملي معها، وأنا الذى ألححت فى طلبى اللقاء، فكيف يمكن لى التخلص منها، وما الباب الذى يمكن أن أفر منه؟

استعرضت جميع الطرق والوسائل. لم أسترح لها جميعاً ولم تكن فى نظرى مستساغة أو مقبولة.. أرحمها سيصمنى بالنذالة.. أخيراً قررت أن يتم اللقاء أياً كان شكله.

لست أدرى لماذا لم أستطع أن أتجاهل ما سمعت، ولم أقدر أن أحتجز فى أعماقى سؤالى الحاد.

- بلغنى أنه يعتقد أنك تميلين لغيره.
- قلت لك لا تحدثنى عنه.
- أنا أحدثك عنك وعن سمعتك.
- مجرد شك.
- هناك صور.
- فى أماكن عامة.. مثلنا الآن.. وبعضها ملفق.
- ليس أكثر؟
- ليس أكثر.
- غريبة!
- لا تشغل بالك.
- وخطتك.
- بخصوص.
- حياتك. وقتك. شغلك.
- كل شيء كما هو.
- كيف؟

- سترى.

من المؤكد أن هناك خطأ، أو شيئا مبهم لا أعرفه.. سراً لا أفهمه.. الإنسان مشكلة كبيرة مستعصية، والتعامل مع أى كائن آخر أيسر من التعامل معه.. ليس الجميل فى كل الأحوال جميلا، والغبى ليس فى كل الأوقات غبياً، والذكى هو الآخر لا يكون أحياناً كما عهدنا. لن ينفعنى غير فدوى..

أما آن لك أن تعود يا مسرفًا فى الغياب.. أيها الطير الذى لا يعرف أين المستقر.. قلبى هو عش أحضانك وشجرة تليق بأغنياتك.. لو ظلت إلى آخر العمر أجنحتك تخبط فى الفضاءات البعيدة تشق طريق الغيوم، فقبل أن تأتيك النهاية ستكتشف أنك لى وأنى كنت أضيع الوقت فى انتظارك.

ظل يسرى وهو فى سرير الأولاد مستيقظاً يفكر، وأخيراً تذكرها.

- لعلها قد نامت..

اشتاق أن يعود إليها ليشاركها سرير الغضب.. فكر لحظات فى طباعها.. حاول أن يقيمها بعيداً عن قدراتها الرائعة لإثارة الرغبة المتأججة.. اطمأن إلى أنه لم يستفزها ولم يسئ إليها.. وأنها كانت تجرى وحدها فى الملعب.

دخل عليها.. كانت الغرفة تسبح فى نور أحمر خافت.. دنا منها كانت قسمات وجهها الرائعة ترتدى غلالة من الحزن.

- آه.. كم أنت لطيفة وأنت نائمة.. إن أحلى أوقات التفاهم بيننا، عندما أكون يقظاً وأنت غارقة فى سبات عميق.. لا بد أنها لا تعرف أن نزوات الرجل الجنسية ليست إلا فصلاً قصير العمر، وعقله المتألق لا يلبث أن يعمل بعيداً عن مؤثراتها.. المؤكد أن كل البشر فى قلوبهم ذرة من الشعر.. وأشك أن تكون فى روح فدوى هذه الذرة.

تمدد إلى جوارها وهو يقول: تحمل.. لا بد أن الصبر يحسب لك.. قريباً وبمشيئة الله ستنتهى ليالينا الصاخبة المفعمة بالتطاول المر والاجتياح.. يجب أن نسافر إلى موضع جميل نجدد به الأرواح.

(١٣)

كانت الفيلا ترقص فى الأضواء.. والجميع بالداخل سعداء يضحكون ويشاركون أصحابها بهجتهم بعيد ميلاد رامى الثامن.. لم يحضر والد يسرى ووالدته لأنهما رحلا إلى العالم الآخر.. الوالدة أولاً وفى إثرها الوالد.. قضى شهراً حزيناً لا يكلم أحداً، ثم شعر بالبرد الشديد، ولما وصل الطبيب تحسن قليلاً، وما لبث أن لاذ بالصمت تماماً متمسكاً بالنهاية.

كان هناك ساهر وصلاح وزوجته وابنه الذى فضل أن يسميه رشيداً تيمناً بحجر رشيد أحد أهم الاكتشافات فى العالم، ومفتاح الكشف عن أعظم الحضارات الإنسانية.. أهدى صلاح لرامى جعراناً فرعونياً بديعاً وأهدته زوجته ساعة، أما ساهر فأهداه كمبيوتر، وقدم له جده والد فدوى مجموعة رائعة من قصص الأطفال مصرية وعالمية، وحمل إليه أصدقاء أبيه وأمه وزملاؤها هدايا كثيرة وجميلة.

لم تتوقف سها التى أوشكت أن تتم عامها الثالث عن الجرى والمداعبة والمعاكسة، ولا يكف جدها عن تقبيلها قائلاً إنها فدوى الصغيرة، أما خالد فكان مشغولاً بالدراجة التى أحضرها والده لرامى، وكان رامى نجم الليلة.. يجلس فى هدوء يتحدث إلى الجميع ويشكرهم ويستعد للتصوير الذى لم يتوقف لحظة.. فيديو وفوتوغرافيا.. بدا رامى صبياً مثالياً وقرة عين لوالديه.

كان الجميع يضحكون من أعماقهم، تتقافز القلوب على الشفاه، بعد نصف ساعة حضرت فرقة موسيقية من أصدقاء ساهر فأضافوا إلى الحفل البسيط أبعاداً جمالية جديدة بأغانيهم وموسيقاهم البديعة المتقنة.. نالت إعجاب الجميع حتى أن فدوى وعدت أن تقدمهم فى أحد برامجها، وحضر الحفل شريف الجمل شريك ساهر فى شركة السياحة

التى افتتحاها منذ شهرين ، وأسهم يسرى فيها بمبلغ طيب وكذلك والد ساهر وأرسل د. رمزى من الإمارات مساهمته.. وكان هذا هو الحل المناسب لحالة ساهر وضياعه، وإن كان شريف هو الذى يقوم بكل العمل وساهر يتولى الدعاية والإعلام والعلاقات العامة.

كان يوماً رائعاً وبدت فيه فدوى غاية فى الجمال والإثارة.. نجمة حقيقية تتحدث مع الجميع وقبلهم وبعدهم، وقبل أن تنتهى الليلة، حضرت الراقصة المعروفة غادة وقدمت عرضاً مثيراً، ثم حضر ثلاثة من المطربين المشهورين ليضعوا لمستهم الساحرة على جبين الحفل مهنئين رامى ومباركين.. سعد الجميع بأصواتهم العذبة وأدائهم الرائع.. طلب كل فرد من الحاضرين بإلحاح أن يحصل على شريط فيديو.. وعرض بعض السماسرة أن يطبع منه مئات النسخ على أن تعرض للبيع.. لم يتحمس أحد.

بعد أن خرج الجميع وانفض المولد، نظر يسرى من جديد إلى زوجته المتألقة التى كانت فى أجمل حالاتها.. وقد غابت عنها تقريباً بعض الغطرسة التى تعود أن يراها تكسو ملامحها.. كانت بسيطة جداً وراضية ومرحبة بكل شىء وبكل شخص، ولم تبد امتعاضاً على أى سلوك أو قول.. لاحظ فقط أنها كانت حريصة على أن تطمئن كل دقيقة على أناقتها المفرطة.. وكان النبيذ الذى شربته يضحك فى عينيها.. وعلى بحيراتهما تنعكس صور صغيرة للأضواء التى تتدلى من السقف ومن الثريات الصغيرة المعلقة على الجدران.

فى الغرفة وقفت قبالته، ووقف يتأملها.. دنا منها.. قبلها.. وطالت القبلة أكثر مما ينبغى.. بعد لحظات ارتأى كل منهما أن يتوقف لالتقاط الأنفاس، وجدتها فدوى فرصة كى تقول له:

- هل تذكر عيد زواجنا؟
- كيف أنساه؟
- متى.. لو كنت تذكر؟

- ٢٨ / ٦.
- أى بعد شهر وأسبوعين تقريباً.
- أنا لا أنوى أن أحتفل به.
تغير لونها واتسعت عيناها.
- ماذا؟
- أريد أن أحتفل بيوم انفصالك عن خطيبك الأول.
ابتسمت، وقالت:
- الاحتفال بانفصالى لا يعنى أن أكون زوجتك.
عانقها وهو يقول:
- غريبة.. كنت أحسب أننى أعرض عليك اقتراحاً عبقرياً.
- إنه خطأ من أساسه.
- هيا إذن نبدأ احتفالنا بمناسبة قرب حلول عيد زواجنا. استدارت وقالت:
- افتح لى السوستة.. اليوم أنا مجهدة.
تحولت إليه.. منحته قبلة ترضية وانزلقت فى الفراش.
فى مثل هذه الأيام منذ تسعة أعوام تأكد انفصال فدوى عن خطيبها، وفشلت كل محاولات التوفيق بينهما.. وأعادت له فدوى بمنتهى الرضا كل ما قدمه لها.

(١٤)

ها هي الساقية تدور، وتخلو لي من جديد دون أن يمسها بشر، باستطاعتي أن أخطو نحوها دون وجل، فإذا كانت قد حققت بعض الشهرة، فقد حققت مثلها، وامتلكت مصنعاً، ولنا في كل مكان إنتاج يدل علينا، وأصبحت الريح الآن مواتية.. إنها لي وأنا لها، وعدلات أصبحت بالنسبة لي كوب لبن سقطت فيه ذبابة.. والحمد لله أن فدوى أصبحت الآن حرة و لابد أن أسرع بالهجوم قبل أن يلتهمها الطامعون وقد تضاعف عددهم مرات.

دعوتها للعشاء

- ضيعت من عمرنا ثلاث سنوات
- أنا !
- نعم أنت.
- كيف ؟
- بقبولك خطبة ابن خالك.
- وما علاقتك ؟.. شخص تقدم لي وقبلته.
- ألم يدر في خاطرك أني أريدك.
- لا.
- ولماذا رفضته بعد هذه المدة ؟
- أنا قررت رفضه بعد عدة لقاءات.
- لماذا ؟
- مسألة لا تعنيك.
- أنا صديق العائلة.
- هذه مسألة خاصة.. حتى العائلة نفسها لا تعرف لماذا.
- أنا - لو سمحت - أريد أن أعرف.

- ليس للنشر .
- لم تذكرى عنه شيئاً .
- مادى ومتخلف .
- وما رأيك فىّ أنا ؟
- أنت !
- ..
- بجد ودون زعل ؟ !
توجست من صيغة سؤالها
- نعم دون زعل .
أخذت نفساً من سيجارتها ورفعت رأسها إلى السماء .. كانت السماء تنعكس على عينيها الجميلتين .
- إلى هذه الدرجة أنا مزعج .
- أنت طيب ، والجميع يتحدثون عنك بإعجاب .
- المفيد ؟
- ماذا تريد ؟
- رأيك .
- قلته .
- لا أريد أن تقولى رجل طيب ... ابن حلال .. له مستقبل .
- من الصعب أن تحكم على شخص بشكل قاطع .
رغم كلامها الحاد كانت فاتنة تتفجر بالحيوية والنضارة .. سوف نكون زوجين رائعين .. ها هو النصيب الذى يتحدث عنه الناس .. ها هى تعود إلىّ لأنال ما تمنيته .
قلت لها :
- كنت أتابع برامجك فى التليفزيون ولم أترك منها واحداً إلا وشاهدته . علت وجهها فرحة لم أشهدها منذ زمن :
- وما رأيك ؟

- برامج ناجحة وجريئة، كثيرون يقولون إنك تصعدين السلم بسرعة.
- لا يتصور الناس أني أعمل أكثر من اثنتى عشرة ساعة يومياً.
- أعجبت بتغطيتك لقضايا عديدة مثل الإرهاب، وسكان العشوائيات، والتلوث.
- الحمد لله
- وبرنامج رائع عن الذين يسرقون أموال البنوك بموافقة البنوك ثم يهربون.
- يسرى.. ممكن أستأذن.. تذكرت شيئاً مهما.
- لم نتكلم فى المهم.
- وما المهم؟
- نحن.
- نحن!
- نعم.. نحن.. لن أتركك هذه المرة، ولن أنتظر حتى يأخذك غيرى.
- أترانى سلعة؟
- لا داعى للعب بالألفاظ.
- ماذا تريد؟
- أريدك أنت.
- لا أحب هذه الكلمة.

تنهدت وساد صمت للحظة، ثم قلت محاولاً حصارها:

- هل تتزوجينى يا فدوى؟

رفعت وجهها من جديد إلى الأفق البعيد ورأت طيوراً بيضاء ترفرف وتحوم فوق المياه سعيدة، لكنها تبدو كأنها بلا هدف.

- أفكر.
- فكرى الآن.
- أحتاج إلى بعض الوقت.. الخطوبة الماضية لاتزال ساخنة.

- أنت قلت إنك تخلصت منها فى الشهور الأولى.
- اصبر قليلاً.
- لا داعى للوقت.. أنت تعرفيننى منذ مولدك.. هل تغير فىَّ شىء؟
- أنا أتابع أخبارك وأعرف كل شىء تقريباً عنك.
- إذن.
- ولكن..
- ضقت بلكن.
دنت مني وقالت بدلال:
- أنت تعرف شعورى.
طرت من الفرح.. وخطفت قبلة، وقلت لها وأنا أجذبها:
- هيا بنا نختار الشبكة.
حاولت الاعتراض.. لم أسمح بأى اعتراض
قاومت الضحك جاهداً إذ تذكرت منظر عدلات وزوجها ذكرى وهما فى محل الذهب يشترى لها كل ما تطلبه.. لتعود إليه.

(١٥)

مرت أربعون يوماً حتى الآن والحزن خيمة تعسة تشمل الفيلا كلها بمن فيها، وتشمل أيضاً كل من ينتسبون لسكانها الذين يقيمون بعيداً عنها، بل تشمل الأصدقاء والأحباب والمعارف.

يبدو أن الحزن كأس لا فرار منه، ولا أمل أن يستثنى منه شخص مهما كان إيمانه ومهما كانت أدوات سعادته، ومهما كانت جبارة قدراته وممتدة إلى آخر الدنيا علاقاته، ومهما كانت أعماله الخيرية بلا نهاية.. لا بد أن يرتشف من هذا الكأس يوماً.

أما أن يذهب رامى، فإن الأمر على الأقل بالنسبة لأهله يختلف، والصفات التى كان يتسم بها وتبهر كل من عرفه تجعل من مأساة رحيله - وهو لا يعز على خالقه - مصيبة حقيقية، ويصبح معها غيابه عبئاً نفسياً ثقيلاً يصعب التخلص من آثاره وممارسة الحياة من جديد، بصورة عادية، كما كان الحال من قبل

- آه كلما تذكرته أو رأيته تجمعت كل تعاسة الدنيا فى قلبى.. أجمل أطفال العالم بلا أدنى شك.. وسامته. ذكاؤه.. خفة ظله.. حيويته.. أدبه.. تفوقه.. فقد كان الأول منذ الحضانة حتى السنة الرابعة الابتدائية.. رسومه.. هدوؤه.. تفكيره.. أسئلته.. طريقة مقابلته لى ولأمه وللناس..كل هذا ذهب.. ذهب بقسوة.. ذهب بسبب إهمالها البشع.. حقاً إنه الأجل الذى نؤمن به .فى النادى يجلسان حول حمّام السباحة، وسرعان ما انشغلت عنه..

انصرفت إلى المعجبين والمعجبات.. سقط فى الحمَّام.. غرق.. راح.. أنا لازلت حتى الآن غير مصدق لما قالته ولا ما قاله من كانوا معها من صديقاتها.. الأقوال متضاربة و بعضها يبدو غير معقول وغير مفهوم.. المهم أننا فقدناه.. إهمال شديد واستهتار.. ونرجسية.

رامي.. ولدى رامي.. حلم أحلامي.. صورته أمام عيوني ليل نهار، أما هي فمهملة بالقصد والتعمد.. والمصيبة الكبرى في خالد.. أفسدته بتدليلها وتشجيعها له على التخريب دون لحظة ندم أو أسف.. نسخة طبق الأصل منها.. والحجة أنه طفل.

أعترف أني مشغول تماماً بالمصنع وأسفارى ولقاءاتي.. لكن البيت مسئوليتها مهما ارتقت إلى أعلى المناصب.. ماذا تفيدني شبكة علاقاتها الضخمة، وقدرتها على أن تفعل أى شيء وأن تحصل على ما تريد وأن تأمر فتطاع.. الولد راح.. والثاني في الطريق.

تحدثت إلى أبيها عشر مرات، وتحدث إليها الرجل حتى كلَّ، واشتكت له مني لأني لا أريد أن أعين له مربية، عينت له من قبل اثنتين وطردتهما بعد أن لاحظت أنهما بلا فائدة.. ولاقتناعي الكامل بأنه لا يربى الطفل إلا أمه.. أمه بالذات.

المصنع الآن أبي وأمي وأبنائي وأحفادي، هو بصمتي في هذه الدنيا، هو الذى يثبت أنني عشت في هذا الزمن، ومررت من هنا، وأنشأت للأطفال هذه المؤسسة.. يكفى أن يكون عدد المتعاملين معنا من شركات وأطفال وعاملين وموزعين وتجار وقراء، يتجاوز المليون، كلهم يفيدون أدبياً ومادياً من هذه المؤسسة.

أين السعادة؟.. هل هي سراب؟.. أصبحت لا أجدها في زوجتي ولا أولادى ولا بيتي، هي بالتأكيد في المصنع وإنتاجه وما يقال عنه.

كان يمكن أن يكون رامي أفضل خلف لي، وخير من يعينني في إدارة المصنع.. عندما مرض الحاج إبراهيم لم يجد من صلبه من يتولى أمر مصنعه.. ربما يبدد لنا الغد مخاوفنا.. ليس ثمة حال يدوم.. لعل خالد يتغير ويهتم بدراسته.. على أية حال المشكلة ليست في خالد، ولكنها في أم خالد.. هل المرأة الجميلة والأطفال والأموال والسكن المريح والحديقة والصحة والأهل الطيبون والشهرة وتحقيق الذات لا تصنع السعادة التى أفكر فيها دوماً.. منذ صغرى وأنا أبحث عنها، وكنت

منها قاب قوسين أو أدنى، كانت تطل لتهرب، وتظهر لتختفى، سأظل أبحث عنها، لكنها فيما يبدو تميل للسكنى فى أحضان البساطة والرضى وهدوء البال، وأين منى هذه الأمور، ربما ليس سهلاً أن تحقق السعادة لنفسك حتى لو امتلكت مقوماتها مادام من يشاركك الحياة لا يسير على نفس المنهج، فسعادتك لست وحدك صانعها، لأنك تتأثر مباشرة بمن حولك.. وربما يمارسون الحياة على نحو مختلف وبمفاهيم وفلسفة مختلفة.. الآن ودائماً لن أستطيع أن أنتزع من مخيلتى وقلبى صورة ولدى الحبيب.

(١٦)

هبط من سيارته أمام الفيلا. انحنى داخلها واستدار واقفاً وقد احتضن عروسة كبيرة وصندوقاً صغيراً وكتاباً. استقبله محروس الجنايني بالتحية المعتادة. تقدم ليأخذ عنه ما يحمله. رده يسرى بهزة من رأسه.

عند البوابة الحديدية رفع رأسه إلى المبنى الأبيض الجميل. لمح ابنته الصغيرة تقضم زورقاً من الشمام متجهة بوجهها الضاحك إلى الشمس الغاربة. كانت تقف في الشرفة ذات القضبان الحديدية الزرقاء، وعندما وقعت عيناها على أبيها أسرعت تغادر الشرفة.

إلى جانب بوابة محروس كانت القطة بوسى تتابع في الفضاء نقاطاً متحركة لا مرئية هائمة.. تنحنى وتميل وتتقدم برأسها وتضرب بيدها..

- إلى أى شيء تنظر هذه القطة.. أنا لا أرى شيئاً حيث تنظر.. لعله بالنسبة إلينا.. لا شيء. تعودت أن تلقانى كلما عدت لكنها اليوم مشغولة بكائناتها المجهولة.

لاحت له على اليمين الجهنمية الكبيرة تتزين بورودها البمبية.. تسربت إلى أعماقه نسمات الرضا.. وقف أمامها يوزع نظراته على كل الورود.. لقد خرج في الصباح مبكراً وعلى عجل دون أن يتوقف كعادته مع إشراقة الصباح بالذات ليتأمل سكان حديقته المتألقة، على أحد الأغصان كان هناك عصفوران يتلاثمان، وقد خلت لهما الدنيا.. لكنهما فجأة اندفعا طائرين.. شعر أنهما يغادران قلبه.

هى الطبيعة دائماً فراش الحب وغسيل الروح

نادت عيناه الياسمينة.. تقدم خطوات نحوها، وسأل محروس، الذى كان يسعى خلفه:

- مالها الياسمينة.

قبل أن يرد محروس، كانت الصغيرة «سها» تطرق الأرض في اتجاه

أبيها .. هبط إليها وعانقها بما يحمل .. قبلها بينما انشغلت بتخليص العروسة من ذراعه، تحاول أن تقبض عليها بيديها وعينيها

- حبيبة بابا .. ما رأيك ؟ .. أحضرت لك عروسة حلوة وكبيرة مثلك.

عانقت سها العروسة بشدة حتى لا يفكر أحد في أخذها

- بوسة لبابا.

أدنت فمها الصغير من خده وقبلته

- الناحية الثانية.

مدت برعم الورد، وطبعت قبلة على خده الثاني.

دنا منها بفمه وهو يقول:

- الناحية الثالثة.

انطلقت بالعروسة، تدق بحذائها الأحمر بلاط المشى .. نهض يسرى وتنفس بعمق، تقدم ثانية من حوض زهور على شكل قلب وسأل محروس عن الياسمينة

- لا شيء يا يسرى بيه ..

- ألا ترى شكلها أيها الرجل العجوز؟

مسح محروس شاربه، وبحث عن الرد، أعاد يسرى السؤال وهو يمسك بالياسمينة:

- كبرت يا محروس .. لم تعد كما كنت من قبل .. ما هذا ؟. إنها مكسورة.

همس محروس: اللهم اخزك يا شيطان.

سمعه يسرى فقال: الشيطان هو المسئول دائماً عن أفعالنا الفاشلة، أليس كذلك ؟

- أستغفر الله العظيم .. الحقيقة يا بيه .. خالد شاط الكرة أصابت المسكينة .. مؤكد هو لا يقصد.

ملأ يسرى حلقه وفمه بالهواء ونفخه في استياء.

تعلم من أبيه مدير عام زراعة الجيزة أن يحسن الاستماع إلى كل ما

ينبض ويخفق في الطبيعة، ويعرف جيداً الفرق بين حفيف ورق الشجر في أدنى درجاته وخفقات أجنحة الفراش مهما علت.. يتابع نمو النباتات والزهور بالذات ويلتمس سعادة الدنيا في تأمل أحوالها.. والتعرف على المتألق منها والحزين والذى يعانى نقصاً ما.. عالم الزهور محراب الجمال الأثير.

مضى متئداً يسبقه حذاؤه الأسود اللامع، يحاول ألا يلمس الحشائش الخضراء التى تطل فى إصرار من بين الفرغات الدقيقة التى تفصل بين البلاط الأبيض المرصع بالفسيفساء.. صعد الدرجات الثلاث تتبعه القطة.. نفذا من الباب الخشبى الكبير واحتواهما المبنى الأبيض الجميل.

عاد محروس إلى حجرته عند البوابة، وظلت أشعة الشمس البرتقالية قبل الغروب تداعب أوراق النباتات والورود التى استسلمت للأشعة الحانية ترتشف من وهجها الراحل آخر الرشفات الدافئة.

استقبلته «هانم» على الباب وحملت عنه الصندوق، والكتاب ومضت إلى حجرة المكتب. استرخى يسرى على كرسى الأنتريه.

مر بإصبعه كعادته على المنضدة المجاورة.. رسم خطاً على صفحة الخشب المصقول.. لم ينزعج كعادته.. كان يبدو راضياً.. نقرت يداه على مسند الكرسى لحناً محبباً و سريعاً إلى حد ما، مضى يتطلع إلى وجه ولده رامى الذى يظهر فى صورته المعلقة على الجدار.

نادى الخادمة:

– يا هانم.

طلعت عليه من المطبخ.

– ما هذا التراب يا هانم؟

– متأسفة يا بيه.. لقد مسحته فى الصباح.. واليوم كان الجو غير مستقر.

– أين الست؟

- خرجت .
- غريبة . . اليوم ليس لديها استديو . آه . . تذكرت . . اجتماع الاثنين الأول من كل شهر مع نائب الوزير .
- قالت إنها لن تتأخر عن الثالثة والنصف .
- تجاوزنا الخامسة والنصف .
- الشوارع لا بد مزدحمة .
حدث نفسه :
- ازدحام الشوارع تحول إلى مأساة ، والضجيج مرض نفسى . . آلات التنبيه دلالة التخلف .
- خذى مفاتيح السيارة وهات الحقيبة .
أخذت المفاتيح وخرجت .
- عندما تعود فدوى . . سأطلب إليها عمل برنامج يومى عن المتخلفين الذين يطلقون آلات التنبيه . . سائقون لا يتمتعون بأى صبر ، ولا أدنى درجات العقل . . يطلقون آلات التنبيه بينما الطرق مكدسة بالسيارات إلى درجة التوقف التام . . الكل يريد أن يذهب . . آخرون يطلقونها ليخترقوا الزحام ويشقوا لحوم البشر لتفسح لهم .
أحضرت هانم الحقيبة والمفاتيح . . قال لها :
- ضعيها فى المكتب .
قالت :
- الغداء جاهز .
- ليس الآن . . أين خالد ؟
- مع المدرس .
صرخ جرس التليفون . . انفتح باب المكتب وظهر خالد يجرى مندفعاً . . رأى والده . . توقف وقال :
- أهلاً بابا
ثم استدار وعاد إلى الغرفة وأغلق بابها .

ضرب أبوه كفاً بكف .. ردت هانم :
- أهلاً يا بيه .. نعم وصل .
التفتت إلى يسرى قائلة وهى تناوله السماعة :
- الأستاذ صلاح .
-أهلاً أبو الصلح .. قالوا إنك سألت .. كنت فى وزارة الصناعة .. ساعة فى الاجتماع وساعتين فى الطريق يبدو أن المسئولين الكبار يذهبون إلى أعمالهم فى طائرات أو مناطيد أو يعصبون عيونهم حتى لا يرون منظر الشوارع . المهم .. ما العمل مع هيئة الآثار التى وضعت يدها على أرض «أحباب الله» بحجة أن تحتها آثاراً ولم نجد شيئاً حتى الآن ..
- إلى متى أصبر يا صلاح .. أنا لست مثلك .. أنا لا أؤمن بالزمن .. أنا أؤمن بالإنسان .. الجديد يا أستاذ ، أن مصنعنا رشحوه ضمن أحسن ثلاثة مصانع للحصول على جائزة الصناعة هذا العام .. نعم .. لا .. ثلاثة فقط .. الحمد لله .. فعلاً .. مفاجأة سوف تسعدنى ؟ .. ما هى .. لابد أن تقول وإلا لن أحضر .. تأكد أنى سأحضر .. بحث عن ألعاب الأطفال عند المصريين القدماء ؟ ! .. أحقاً ما تقول ؟ .. زميلك فى الهيئة ؟ سوف أحضر إن شاء الله فى الثامنة .. سلام .
وضع السماعة .. قال لهانم : قبل أن يخرج المدرس ، نادنى .
صعد إلى حجرته . خلع ملابسه ، تطلع إلى السرير الذى تغطى بمفرش بديع الألوان وقطع الأثاث الأخرى فى حجرة النوم المرتبة بيد خبيرة .
- بارك الله فى البنت هانم .. بدونها البيت مقبرة ..
تطلع إلى جدران الغرفة المغلفة بالورق الأبيض المنقوش بزهور فضية .. توقف عند صورة زوجته .. فدوى المهدى كانت تحدق فيه وشعرها المنكوش يشغل كل المساحة .. بدا على وجهها ازدهار شره .. كانت عيونها أوسع من أحداقها ، وفمها ذا شفاة نحاسية وأنفها مدبب وعنيد .

مضى يسرى إلى الحمام.

بعد نحو عشر دقائق تقريباً، انفتح الباب وخرج المدرس، وسأل هانم عن الأستاذ يسرى.. قالت له:

- إنه يريدك.

- وأنا أيضاً.

صعدت الدرج ونادت يسرى. نزل وسلّم على المدرس وسأله عن خالد. مطَّ الرجل شفتيه، وتنهد من أعماقه.. جلس يسرى وأشار إلى الكرسي قائلاً للمدرس: تفضل..

جلس المدرس وهو يقول: لا داعي.. المسألة في غير حاجة.

- ما الموقف إذن؟

- المديرة تريدك.

- لماذا؟

- زملاؤه يشكون من شقاوته، وآخر الحوادث.. تمزيقه كرتهم بمطواة كانت معه.. فأصرت المديرة على طلبك.

- هذا كثير جداً.. طيب.. أنت تعلم يا أستاذ أن الوقت محدود جداً.. ولا توجد فرصة لزيارة المديرة، فأرجو أن تسوى الأمر معها وسوف يجد العقاب الذى يستحقه..المهم مستواه فى المدرسة والدروس.

- خالد ولد ذكى.. لكنه لا يريد أن يتعلم.

- وكيف عرفت أنه ذكى؟

- له لمحات.. تظهر أحياناً فى الفهم السريع، لكنه على كل حال يقاوم استخدام ذكائه فى المذاكرة.

- أليس هناك أمل؟

- هناك أمل فى حالة واحدة.

- وهى؟

- مساعدتكم.

- نحن مستعدون . . ما المطلوب بالضبط ؟
- التوجيه . . المتابعة والمراقبة . . لا بد أن يبتعد عن أصحاب السوء .
- ليس له أصحاب .
- ربما فى المدرسة .
- ماذا لاحظت عليه ؟
- كل ما يسوء .
- مثل ؟
- أول أمس لم يحل الواجب ، وعندما سألته عن السبب . . قال : لقد كنت مريضاً ، وقال الطبيب إنى مريض بالإيدز . . تصور ابنك مريض بالإيدز . . المفروض أن أخاف على نفسى .

تبدلت الألوان والتعبيرات على وجه يسرى بين الذهول والحزن والفرح و الأسف . . بين الضحك والثورة . . طفل فى الثامنة لديه إيدز !

- منذ أسبوع سكب زجاجة الصمغ على قاعدة الكرسى الذى أجلس عليه .
- ربما وقعت منه .
- لا . . لأن نفس الحادثة ارتكبها فى المدرسة ، ولم يستطع الأستاذ أن ينهض إلا وهو يحمل الكرسى فى مؤخرته والأولاد لم تتوقف عن الضحك .
- وكيف عرفوا أنه ولدى ؟
- هم لم يعرفوا . . لكننى عرفت عندما عملها معى هنا .
- ربما نقلها عنهم .
- يا يسرى بيه . . لا تدافع عنه .
- أنا لا أدافع .
- منذ قليل رن التليفون . تركنى وأسرع ليرد عليه .
- لماذا لم تضربه ؟
- الست فدوى قالت : لا تلمسه . . فقط قل لى ، وأنا تعبت من القول .

لمح يسرى ولده خالداً يوارب الباب، ويتابع الحديث فأشار إليه.

قالت هانم: وطول النهار يضرب سها، ومن يومين صب زجاجة الكولونيا في حلة الشوربة، وأفسد كل الطعام وقبلها حاول أن يخنق بوسي.

- ولماذا لم تخبرى الست؟

- أخبرتها.

- وماذا قالت؟

- قالت هذا طفل صغير.. أنتم تنسون ذلك.. ولا بأس أن يخطئ.. هي دائماً تقول نفس الكلام.

تنهد يسرى ووضع رأسه فى راحة يده.

قال المدرس نافد الصبر:

- افتح كتبه وكراساته، ستجدها مملوءة برسومه.. مدافع ومسدسات وطائرات، أو تجد نصفها فقط هو الباقي.. هذا بالإضافة إلى أنه مهمل وكذاب، وربما لا أستمر معه.. سلام.

مضى المدرس وظلت رأس يسرى في كفه إلى أن تقدم منه خالد.. مال عليه وقبله، ثم همس في هدوء عجيب:

- وعدتنى أن تحضر لى اليوم شيكولاتة.

رفع يسرى رأسه، ونظر فى حنو إلى ولده، وقد ترقرقت فى أعماقه نهيرات الحنان.. تأمل ملامحه الجميلة الوديعة.. حدّق فى عينيه الصافيتين وتطلع إلى ما فيهما من الطيبة والبراءة.. شرب منهما وسقى روحه.. ظل يحدق فى وجهه، كأنه لم يره منذ زمن.. مر على ملامحه وهو يشعر أن رقعة الجمال تتسع وتتسع، وتدفع بعيداً جداً كل ملامح الأسى والأسف وتمسح من قلبه كل هواجس القلق.

شعور غريب سيطر عليه و تغلغل فى كيانه.. ما أجمل هذا المخلوق النقي الطاهر.. وما أجملها الطفولة.

- حين أرى الأطفال.. أشعر أن الله ألقى فى الأرض بعضاً من تفاح الجنة.

تذكر شكاوى المدرس والمديرة وهانم، اعتبرها ذرات من الرمال على صفحة الماء السلسال، خطوات نمل فوق البدن النابض بالحياة والقوة.

وقفت هانم تنظر إلى الرجل وولده، وقد تملكتها الدهشة.. ضم يسرى طفله بحنان وقوة، والتمعت فى عينيه ظلال الدمع. سيطر على انفعاله، وظل محتفظاً بين أحضانه بالبدن العزيز.. همس خالد:

- هل أحضرت الشيكولاتة يا أبى؟

أجاب أبوه: نعم يا حبيبى.

كان يسرى يشعر فى هذه اللحظة برغبته الشديدة فى أن ينال رضى ولده.

قال خالد فى هدوء وثقة: أريدها الآن..

حمله وأجلسه على ركبته اليسرى، وسأل هانم:

- أين سها؟

- نامت مع عروستها.

- وهل تناول خالد غداءه؟

- نعم.

اندفع خالد قائلاً:

- لا يا أبى.. لم آكل بعد.

- والله العظيم يا سعادة البيه..

أشار إليها يسرى أن تتوقف:

- أين الصندوق الذى كان معى؟

- فى المكتب.

- هاته، وخذى خالد ليأكل.

- وأنت؟

- عندما تحضر الست.

مضت هانم وخالد.

وقف يسرى وطقطق عظام رقبته وذراعيه وأصابعه وخصره

والترقوة.. انحنى واعتدل.. فوجئ بالظلام يحط على الفيلا، ويسدل ستائره على النوافذ.. لا شيء يبدو فى الخارج إلا الظلام.. تذكر أنه لم يقرأ الصحف اليوم. مضى إلى المكتب. فتح الحقيبة وأخرج الصحف والمجلات.. عاد إلى الأنتريه.. وضعها أمامه.. فتح الراديو وحوَّل المؤشر إلى البرنامج الموسيقى.. أعجبه الكونشرتو المذاع.. قلَّب فى الصحف.. قرأ بعض عناوين صفحة المال والاقتصاد، ثم الرياضة وتوقف لحظات عند الحوادث.. قتل .. قتل .. قتل.. حرق. طعن.. سرقة.. تزييف.. قتل.. طعن.. قتل.. خنق.. قتل.. قتل

- من يستطيع أن يوقف هذه المهازل؟!

(١٧)

رن جرس التليفون. رفع يسرى السماعة.

- نعم.. ما لك يا ساهر.. مستحيل!.. وحالة الرجل.. يا الله..
وهى.. فى المستشفى.. طيب.. مفهوم..

أسرع يسرى يصعد الدرج. ارتدى على عجل نفس ملابسه التى كانت لاتزال مطروحة على السرير.. حشى جيبه برزمة من النقود.. انطلق إلى مستشفى العجوزة.

***

كان شارع أبوالهول خالياً وعريضاً خاصة بعد أن قامت المحافظة بردم الترعة التى كانت تشغل أغلب المساحة، عند نهايته انحرف يميناً فى شارع الهرم.. كان خالياً حتى منتصفه تقريباً..

لا تنيره أية مصابيح، ولا تكسر جدران الظلام فيه إلا أضواء السيارات.

- لماذا يا فدوى.. لماذا؟ أستغفر الله.. الحذر لا يمنع القدر لكنى أعرف سرعتها فى القيادة وعصبيتها الشديدة.. سوف يختلف الأمر لو كانت إصابة الرجل بسيطة.. مسكين.. لا أعرف إذا كان شاباً أم كهلاً.. هل يا ترى لديه زوجة وأولاد؟..

مؤكد أنه عامل أو موظف بسيط.. فى كل الأحوال مصيبة وحطت على رءوسنا.

لن أسمح لها بعد ذلك أن تقود سيارتها، لكنى لن أسمح في الوقت ذاته أن يكون لها سائق.

تألق النصف الباقى من شارع الهرم بنور الملاهى والمحلات الكبيرة والزحام.

- لماذا يا فدوى.. لماذا؟.. أكان لابد أن تقودى بسرعة.. وأين كان

الرجل؟.. المشاكل لن تنتهى، والمشكلة الأكبر أنها لا تسمع الكلام ولا تقبل رأى غيرها.

بلغ المستشفى.. كانت أمام البوابة الحديدية الضخمة نساء تولول ورجال كثيرون..

لمح يسرى زوجته تخرج من الباب الجانبى فى حراسة ضابط وثلاثة جنود، وخلفهم ساهر.. كانت مشعثة الشعر. زرقاء العين اليسرى ومجرحة الركبتين، بينما كُم الفستان ممزق.. اندفع نحوها مذعوراً، وفى الوقت نفسه اندفعت نحوها النساء يريدن أن ينتقمن منها. تصدى لهن رجال الشرطة وحالوا دون لمسها فقذفوها بأقبح الشتائم.

سألها يسرى: ماذا حدث؟

صرخت: كلهم كلاب.

سأل الضابط:

- إلي أين يا سيادة الرائد؟

نظر إليه الضابط بلا مبالاة، ولم يرد، تقدم منه يسرى ووقف في طريقه:

- أنا زوجها ولا بد أن ترد علي.

تنهد الضابط نافد الصبر، ولم يرد، ووجه أمره إلى الجنود:

- اسحبوها علي البوكس.

ظل يسرى واقفاً أمام الضابط:

- فهمني يا حضرة الضابط.. ماذا جرى؟.. من حقى أن أعرف ماذا جرى لزوجتي؟

تقدم ساهر وجذب يسرى من كمه:

- تعال يا يسرى وأنا أفهمك.

تخلص يسرى من يد ساهر قائلاً:

- لن أفهم إلا منه.. ماذا جرى يا حضرة الضابط؟

- هل حقا تريد أن تعرف؟

- لو سمحت.
- زوجتك قتلت رجلاً بسيارتها وسبّتني وسبَّت الجميع حتى الميت.
مد ذراعه وأزاح يسرى من طريقه.
وقف يسرى لحظات.. منحنياً.. متهاوياً ومذهولاً.
- مات!
استرق النظر نحو أهل الميت، ولاحظ أن بعضهم ينظرون إليه.
كأنهم يعرفون أنني زوج الهانم التي قتلت رجلهم.. مسكين.. لابد أن أسرة كاملة تتحطم بموته..
مضت فدوى من المحمول تتصل بمكاتب المسئولين واحداً بعد الآخر.
وتصرخ فدوى كبيرة المذيعات بالتليفزيون المصرى، ونجمته الأولى وأجمل جميلاته، وأشهر من وقفت خلف الشاشة الصغيرة، تتمنى أكبر شخصيات البلد أن تكون ضمن ضيوف برامجها: أين أنتم الآن يا غجر!
يسرى مضطرب حائر لا يعرف بالضبط كيف يتصرف.. يدور حول نفسه..
- يبدو أن الضابط المجرم أمر جنوده بإهانة فدوى.
سحبه ساهر إلى سيارته وأسرع يلحق بسيارة الشرطة،.. قص عليه ساهر القصة بالتفصيل.
- حاولت فدوى التجاوز من جهة اليمين.. اندفعت بقوة. فوجئت بالرجل بالقرب من الرصيف واقفاً ينتظر الأتوبيس.. حاولت أن تتفاداه، لم تستطع. دهمته وأسرعت تجرى، فى نفس اللحظة رآها شاب يركب دراجة نارية. طار وراءها. أوقفها. طلب إليها أن تعود فوراً لنقل المصاب. سبّته. ضربها.. تجمعت الناس. جاءت الشرطة. ذهبوا إلى الرجل.. حملوه إلى المستشفى.. بقى الجميع فى انتظار إجراء عملية له مع نقل دم، وعلاج بعض الجروح، وعمل أشعة لكسر فى الحوض والرقبة والساق اليسرى، وكذلك علاج جروح فدوى.

- ولماذا لم تتصل فدوى بالبيت ؟
- أرسلت جندياً برقم تليفونك في المصنع ورقم تليفوني.. لم يجدك الجندى في المصنع، ووجدني أنا.. حضرت على الفور. اتصلت بك في المنزل.. كان التليفون مشغولاً.. وأخيراً وجدتك.
- متى كان الحادث ؟
- تقريباً في الرابعة.. وهي عائدة إلى المنزل.
- اتصلت بالمحامي ؟
- لم أجده وتركت له خبراً.

في القسم تم احتجازها على ذمة التحقيق.. عرض يسرى دفع أى مبلغ لتخرج.. أصرت الشرطة على أن تبقى حتى الصباح بعد أن أثار الضابط الجميع ضدها.

حضر المحامي، ولم يستطع أن يغير شيئاً من الموقف..

قال الضابط بمنتهى القوة والحزم: لن تغادرِ القسم لو تدخلت الأمم المتحدة نفسها..

صرخت فدوى:

- أنا.. فدوى المهدى.. أكبر مذيعة في مصر يحدث لى كل هذا.. أنا أريد الوزير حالاً.. اطلب لى وزير الإعلام.. اطلب لى وزير الداخلية اطلبوا لى مدير الأمن أو مدير المباحث.. أنا فدوى المهدى أنام في الجحور، وهم ينامون في القصور.. فدوى المهدى مستحيل تنام على الأسفلت.. سأهدمها على الجميع.. عليّ وعلى أعدائى.

استمرت تصرخ وتدخن وترتجف.

اتصل يسرى بالمنزل.. تكلم مع هانم وطمأنها، ذهب ساهر ليحضر لها طعاماً وعصائر وسجائر. مضى يتصل بعديد من الشخصيات ذات الحيثية.

لم تتوقف فدوى لحظة عن الصراخ، لكنها فيما يبدو كانت حريصة على أن يغطى شعرها الأصفر المنكوش والمجعد الجانب الأيسر من وجهها

ليخفي العين المضروبة بقسوة.

صعد يسرى إلى المأمور، وجده في ثورة شديدة ويرد على الاتصالات بحدة وإصرار.

فدوى كائن آخر.. الشفتان تقبضان على السيجارة وترتجفان، تمتص نفساً طويلاً وتدسه في حلقها إلى أقصى ما تستطيع حتى تبرز عظمتا خديها، ثم تسحب بإصبعها الوسطى والسبابة السيجارة التي التهم نصفها نفس واحد.

تفتح فمها وتعود إلى الصراخ، ومع الصرخات يتعالى دخان الغضب خارجاً من القدر الذي يغلي وينتفض. عادت تضرب على المحمول أرقاماً وراء أرقام بدا أن الجميع يتهرب منها.

اشترى ساهر من أقرب محل بطانية وملاءة ومرتبة ووسادة.. جلست فدوى على المرتبة ولم تأكل شيئاً.. شربت علبة من عصير المانجو.. ظلت تدخن وتسب كافة الخلق وتهددهم جميعاً بأنها سوف تشردهم. وأخيراً بكل قوتها وغضبها قذفت المحمول في الجدار فتحطم وعادت تصرخ وتلعن وتهدد.

رويداً.. رويداً.. شرعت جفونها تنغلق رغماً عنها.. دعاها يسرى لترتاح.. وضعت رأسها على الوسادة.. والسيجارة في يدها.. غطاها بالبطانية.. أصر ساهر على أن يبقى إلى جوارها.. جلس مع الضابط النوبتجي وجنديين خارج الحجز.. حضر بعض الصحفيين والمذيعين هونوا عليها.. أدركوا صعوبة الموقف.. قرروا ألا يتركوها ولو بقيت في القسم شهراً..

لم يجد يسرى داعياً لبقائه فغادر.

في البيت أعد يسرى لنفسه فنجاناً من القهوة، جلس على كنبة الأنتريه.. تفادى أن يدخل حجرة النوم حتى لا يستدرج.. كان يريد أن يصحو.. ثمة أشياء يتعين أن يفكر فيها.. مدَّ ساقيه.. وشرع يرتشف من القهوة وأسرعت إلى ذاكرته عبارات ساهر.

- عندما ضربها الرجل راكب الدراجة النارية وسقطت على الأرض، طلب إليها أن تنهض معه وتحمل المصاب، ولما رفضت حاول جرها على الأسفلت.. تمثلت له صورة ركبتيها المجرحتين حتى تمزق الجلد، ماذا عليه أن يفعل؟.. هل يبحث عن هذا الشخص الذى اعتدى عليها بهذه الصورة لينتقم منه ويلقنه الدرس الذى يستحقه؟.. لكن الرجل مات، على أنه لا يعرف بالضبط الصلة بين الرجل وراكب الدراجة.. أياً ما كان الأمر فالرجل مات، وليس يُعيده أن يُعاقب راكب الدراجة، وليس بمؤثرٍ هذا العقاب على جرم زوجته، ولن يؤثر بالقطع على سير القضية.

تنهد ثم قال:

- أما زوجتى الثائرة، فلا أملك إلا أن أدعو الله أن يكون فى عونها وأن يهديها..

أتمنى أن يؤثر ما حدث على طريقتها فى الحياة ومع الناس.

اكتشف أنه لازال بملابسه. صعد إلي غرفته وتخلص من البدلة والجورب والحذاء ارتدى منامته الرقيقة، دخل إلى الحمام فاغتسل.. شعر فجأة بالجوع. تساءل عن آخر مرة تذوق فيها الطعام.. تذكر أنه تناول فى الصباح كوباً من اللبن ونصف رغيف بالجبن وعدة أكواب من الشاى طيلة النهار.. فى المصنع ثم فى وزارة الصناعة وفى قسم الشرطة.

مضى إلى المطبخ، غرف لنفسه وأكل بشهية غريبة.. كانت زوجته فى الأوانى وعلى السفرة وفى كل لقمة أو ملعقة يدفعها إلى فمه.. جلس على كنبة أمام المكتب، صب زجاجة من المياه الغازية فى كوب كبير.. اعتاد أن يجلس هنا بعيداً عن الأولاد ويفكر فى شئونه وأحوال المصنع لكنه لم يضغط زر الكاسيت ليستمع إلى الموسيقى.. هو لا يريدها الآن.. البحر أحق أن يجيء إليه. بحر هائج يلطم جسده بكل عنف، والبحر الآن بعيد.. بعيد جداً، لا شيء قريب منه الآن إلا فدوى ومشكلاتها.

مضى من جديد في إثر ذاكرته التى سحبته وراءها، شرعت تجتاز به دهاليز الأيام الماضية منذ أن تعرف إلى فدوى المهدى.. أمامه على المكتب صورة ملونة لهما في أحد أيام شهر العسل.. بطاقة تحمل تعبيراً مثالياً للسعادة والانسجام.

بعد أن انتهى من الزجاجة أغراه السكون المخيم والهدوء أن يمدّ جسده الثقيل على الكنبة. تنهد بعمق لتصعد من روحه أنفاس حارة تشي بأعماق تمور بالحيرة والضجر والتوجس من الغد المجهول، الذى لن يحمل إليه إلا التعاسة ولو إلى حين.

- المصائب لا تحدث في الصحراء أو في الغابة، وإنما تحدث حيث يكون الناس.. لأنها من صنعهم، وكما أن للجوع ألمًا، فللشبع أيضاً.. وكما أن للفقر تعاسة، للثراء أيضاً.. ففي أى الأحوال يستطيع الإنسان أن ينجو.. آه.. الحزن يأكل القلب كما يأكل الصدأ الحديد.. كانت غرفة علاقتنا تسبح في النور كالبلّورة، لكنها الآن غدت شاحبة. تفوح منها رائحة عطنة مثل رائحة تصدر عن مخزن مهجور.. ارتفع الجدار وأخذ يزداد صفاقة وسماكة كل يوم منذ رحيل رامى.. ارتفع الجدار حتى لحق بقلبى. لم يعد ثمة مبرر للعتاب.. أصبحتُ أهرب من الحوار، والصمت بيننا يزداد تعقيداً.. لا أستطيع مهما بحثت عن الأعذار أن أخلى مسئوليتها عن تسريب الشيخوخة المبكرة إلى مشاعرنا وحياتنا. دبت الشيخوخة في كل شيء وتغلغلت.. أصبح الضجر هو السيد.. يأكل من أطباقنا ويشرب من أكوابنا ويتنفس من أنوفنا، وتضرس بحصاه أسناننا، أحس به يتمشى في الغرفات ويتعلق بالجدران.. تتناهى إليّ أصوات الموسيقى الصدئة، ويحسبها المرء كِباشاً تتعارك في الغرف النحاسية.. السكين المثلومة لا تصلح لشيء مهما كانت يدها من الذهب أو اللؤلؤ.. مهما كانت يدها.

(١٨)

وضعت فدوى ساقاً على ساق ومضت تتحدث فى التليفون، فى يدها سيجارتها وأمامها تتكوم الأعقاب فى المنفضة.. صوتها العالى يحكى قصة قتلها الرجل بسيارتها، وكيف أنها أرغمت الضباط على الاعتذار لها، وكيف انتهت القضية برمتها بعد أن أثبت المحامى أن الرجل يعانى من اختلال عقلى، وأنه هو الذى رمى بنفسه أمام السيارة.

خالد يصوب بندقيته إلى مجموعة العرائس المرصوصة على رف فى الصالة فيسقطها الواحدة وراء الأخرى.

حضر المدرس.. وحيًا السيدة.. ردت بإيماءة من رأسها وواصلت ضحكها. مضى المدرس إلى حجرة المكتب وتبعه خالد.. جلست سها تجمع العرائس الميتة وتواسيها وتسمع شكواها من خالد، وتعدها بأنها ستنزل به العقاب الذى يستحقه.

السماعة فى يد والأخرى تمسك السيجارة، ثم تضعها لحظات فى المنفضة لتعبث بشعرها المنكوش، تعود إلى السيجارة فتدفعها بسرعة إلى فمها وتسحب نفساً سريعاً. تعقبه عدة عبارات تشى بسلطاتها.

قالت فدوى: ولذلك أصر المهندس يسرى على إقامة حفلة صغيرة الليلة بمناسبة نجاتى من الحادث.. لازم تحضرى.. نحن فى انتظارك، وضعت السماعة ورفعتها ثانية وطلبت رقماً، تحدثت ثم ختمت بقولها: أبو خالد أصر على إقامة حفلة الليلة.. لازم تحضر.. نحن فى الانتظار وضعت السماعة ورفعتها.

أخيراً..

وقفت أمام المرآة بشعرها الخيمة. سوّت مقدمته. مرت على حاجبيها.. عدلت ياقة قميصها الملون الواسع الذى ترتديه فوق «استرتش» أسود شفاف، بينما تنام قدماها داخل حذاء قماش خفيف

أبيض.. تتقافز في الصالة بمرح ونزق يملؤها شعور بالسعادة وإحساس بالجسد الرشيق الذى يود لو يطير. صرخت بغتة:

- هانم.

ردت هانم من المطبخ، ثم ظهرت بعد لحظات.

- أنا عند الكوافير.. اتصلى بالأوتيل..العشا والحلو وكل المطلوب يكون هنا قبل الساعة التاسعة.

- اتصلت يا ستى.

- اتصلى مرة ثانية وثالثة.

- حاضر.

- هل أحضر خشبة الفواكه؟

- أحضرها.

حملت حقيبة جلدية على شكل نمر، بها بعض الملابس وغادرت الفيلا.. استقلت سيارة يسرى الخضراء.

بعد لحظات خرج المدرس هائجاً يصرخ:

- يا هانم.

ردت هانم من المطبخ، ثم ظهرت على بابه، وقالت وهى تضحك وكثيراً ما كانت تضحك كلما رأت المدرس:

- نعم يا أستاذ.

- أنا ماشى.

- بالسلامة يا أستاذ.

ثبت نظارته فوق أرنبة أنفه وقال:

- ولن أعود مرة أخرى.

ضربت هانم صدرها بكفها وقالت:

- يا خبر أبيض.. لماذا يا أستاذ؟

- سأدخل المورستان.

- تدرس هناك؟

- لا يا هانم . . سأعالج .
- سلامتك يا أستاذ . . ما السبب يا ترى ؟
- خالد .
- ماذا فعل ؟
- ولد غير طبيعى . . تصورى . . يقول إن أمه قتلت رجلاً وتقيم اليوم حفلة بهذه المناسبة .

لم تستطع هانم أن تكتم ضحكها .

- ألم أقل إنه غير طبيعى .

تماسكت هانم وسألت المدرس :

- ألا تقرأ الصحف ؟
- لا . . لماذا ؟

عادت تضحك وهى ترى خالداً ، يقف عند الباب ويشير إليها كى تدع الأستاذ يذهب .

قال المدرس : يبدو أنك تأثرت به يا هانم . . سلام .

قالت هانم : لا تتسرع يا أستاذ .

- لقد تحملت كثيراً .
- لا تأخذ قراراً من طرف واحد .

مط شفتيه ثم قال :

- هل ترين ذلك ؟
- بلا شك .
- لكنى مُصر .
- قلبك أبيض .
- كيف عرفت ؟
- من عينيك .

وعادت هانم تضحك ، وقد تأكد المدرس أنها متأثرة بخالد . . نظر إليها فى شك . . ثم قال :

- سلام.

وقفت سيارة مرسيدس بيضاء أمام الفيلا. أسرع محروس ليقابل صاحب السيارة. نزل منها يسرى. كان منذ يومين بالإسكندرية.. أخبرته هانم بما قاله المدرس وبموضوع الحفلة. بدت علامات الغضب على وجهه.. بعد نصف ساعة عادت فدوى مزينة بصورة باهرة.. ابتسمت له وهى تزهو بجمالها.. دارت حول نفسها:

- ما رأيك يا باشمهندس؟

- ..

- لماذا لا ترد.. ألست جميلة؟

- لماذا تتزينين هكذا؟

دنت منه وقالت: لك يا أبو خالد.

قال لها في أسى: أبو رامي.

تنهد من أعماقه وصعد السلم إلى الدور الثاني.. تبعته

علا صوتهما وتجاوز جدران الفيلا.. طال الشجار ثم تدرج هابطاً إلى أن خرج يسرى وذهب إلى غرفة خالد وسها.. كان خالد يفتح بطن سيارته الصغيرة ويخرج أحشاءها.

جلس أبوه معه يحدثه ويربت على ظهره.. طلب منه أن يهتم بدروسه ويحب أخته ويسمع كلام المدرس.. وعده خالد أن يفعل إذا أحضر له دراجة جديدة بدلاً من تلك التى ورثها عن رامي.

حضرت سيارة الفندق تحمل العشاء والحلوى.. قام خشبة وهانم بمساعدة عمال الفندق فى تنظيم وضع الأطباق وإعداد المائدة.. حضر ساهر بدون شريكه شريف الجمل وتوالى حضور الضيوف. تسلل يسرى خارجاً من الفيلا.. ذهب إلى صلاح علام.. لم يجده، فذهب إلى «أبو الهول» كعادته يشكو له ويناجيه.. سألت فدوى عن شريف، أخبرها ساهر أنهما انفصلا.. بدا عليها الأسف الشديد.. استقبلت الضيوف مع ساهر.. اعتذرت لهم فدوى عن مرض يسرى المفاجئ..

قاومت فدوى مشاعرها الثائرة، حالت بينها وبين الظهور على صفحة وجهها.

ظل الصمت والغيظ والضجر سيد المكان لعدة أيام.. سافر يسرى إلى ألمانيا ليتفق على آلات جديدة وليقضى هناك أكبر مدة غيابها عن البيت.. اتصل مرتين فقط في مواعيد يعرف أن فدوى لن تكون موجودة خلالها. حاول أن يتنزه، ويسهر ويشاهد المعالم ويشرب البيرة، ويسير على قدميه ويصعد جبالاً ويرهق نفسه لينام قتيلاً لا يفكر. عندما شعر بالملل اتصل بصلاح لكى يلحق به.. أمضيا معاً أسبوعين في كان ونيس وفينيسيا. حاول كل منهما أن يتصرف كأنه بلا زوجة ولا أولاد.. طلب يسرى من صلاح أن ينسى رشيداً وإيزيس، كما نسى خالداً و سها..

قبل أن يعودا إلى مصر بيومين، قال يسرى لصلاح: علينا الآن أن نتذكر كل شيء وكل الناس لنجهز لهم الهدايا.

قال له صلاح: أرجو أن تتكرر، لأنى فى المرة القادمة سأحضر للتجارة. أسرع يسرى يقول له: كان يجب ألا تقول ذلك، لأنى سأضطر إلى تحميلك بالتكاليف.

(١٩)

قوة مجهولة توقفه أمامها، تصلبه وتعريه.. تنزع الأغطية المكدسة فوق روحه، تمحو الهموم والمشاغل، كل الأفكار المتعلقة بالمال والعمل، توجه كشّافاً قوياً يضيء جوانب صدره، فيبدو كهيكل زجاجي يتفجر منه النور.

شيء غامض يخترقه، يصبُّ على قلبه مادة غريبة، ثم يضغط ويضغط، يقلبه ويعجنه، يرجه رجاً شديداً، ويعيد تشكيله من جديد.

ما الذى يحدث بالضبط؟ لا يدرى.. يتساءل وهو سابح فى بحيرة الحلم.. هل يكون هذا هو غسيل القلب!؟

قبل أن ينتهى صف العاملات فى العنبر، وقعت عيناه عليها، ولم يكن قد تعوّد أن ينظر إليهن، فما أن يقترب من واحدة قليلاً ويسألها عن أحوالها حتى تنطلق، فتفرغ فى أذنيه كيس حياتها وحياة الجيران.. وهو لا يحتمل هذه الثرثرة.

وقعت عيناه عليها، ويبدو أن عينيه لم يكن باستطاعتهما أن تتجنبا ذلك، جذبه فى البداية منظرها وهى تعمل فى ثقة تامة ومهارة واضحة، وإخلاص شديد لدرجة الاندماج وعدم الإحساس بغير العروسة التى فى يديها.

تصل إليها قطعة البلاستيك الحمراء كائناً صلداً ومقيتاً، وهى التى تكسوها بالثياب وتنتقى لها الحذاء اللائق وتتأمل كل لمسة فيها.. لون عينيها ولون شفتيها.. وقد تعيد رسم وتحديد هذه الألوان إذا لزم الأمر، مع أنه عمل السابقات. تضبط للعروسة فستانها.. تقربها من عينيها وتبعدها.. لوحة تضع لها الرتوش وتسوى لها الملامح. وتتأكد من النعومة المطلوبة لحركة ذراعيها ورأسها داخل صندوق الجسد، وترمى ما يفتقد هذه النعومة..

تنظر نظرة أخيرة، هل هى بعد الثياب اكتمل لها الشكل الجذاب..؟
لم يبق إلا أن تزينها الفيونكات والشرائط وإطلاق الشعر، وشد الخصر بوردة على الظهر.. عندئذ تُوسدها فى موضعها وتصل إلى التى بعدها لتضعها فى علبتها الفضية ذات الواجهة الشفافة.. تستقر فيها وتنتظر العَدَلْ. لم يسألها عن شيء. اكتفى بالنظر والإعجاب. ثم صعد إلى وجهها، وحدّق فيه وهى مغمضة العينين، لكن رموشها الطويلة عملت عملها، وإن لم ترد عليه عيناً بعين.

تلفّت نحو الجميع فوجدهن قد انصرفن إليه، ينتظرن الخطوة التالية، لم يخف عليهن أن وقفته أمام هذه العاملة مختلفة.

كان قد مر عليهن جميعاً وسأل عن قطع الغيار التى كان من المتعين أن تصل للمصنع أثناء غيابه.. شعر بالغيظ لأن شيئاً لا يمضى وحده إلا فى النادر. توقفت بعض الآلات والبعض الآخر أمكن تشغيله بخرط القطع البسيطة المطلوبة له بالورشة.

ظل واقفاً أمامها يثقب جفونها بنظراته مشتاقاً أن يرى لون عينيها.. ما هذه الحالة التى تصيب الإنسان فى لحظة ما؟.. لحظة قدرية.. موجهة ومدببة مصنوعة بحذق ومعدة بإتقان فى اتجاه محدد، ولا يستطيع أذكى أو أقوى البشر أن يحولها عن هدفها.

لم يكن قادراً على تركها قبل أن يرى عينيها، ففيهما سوف يعثر على حريته أو عبوديته. والمهم أن يتحدد مصيره. وهى لابد كانت فى دهشة من وقفته التى طالت وأصبحت حصاراً لها ومدعاة لخجلها، وزاد عليها الحصار بإغماض العيون، ولأن صبره كان أكبر منه وخارجاً عن إرادته، فقد ظل واقفاً إلى أن عجزت وكادت تختنق فأطلقت سراح جفونها.

كانت حواسه التى فى أعمق أعماق كيانه قد وعدته بأن كنزاً أو شيئاً رائعاً تحت الأجفان، ووراء هذا السمت الهادئ المعتد، وكان الأمر بالضبط كما توقع.

عيناها سوداوان ذواتا رموش طويلة يعلوهما جبين عريض ومضيء.

.. ن الخدين صغيران وكذلك الذقن، أما الشفتان فثريتان مشتعلتان، والأنف طويل قليلاً بما لا يزيد عن المقاس المثالى إلا نحو مليمترين.. الشعر كثيف وطويل. سقط إلى منتصفه المنديل الوردى الذى كان على قمته معصوباً منذ لحظات.

لما فتحت العاملة عينيها جمعت الكون كله وهو فيه بنظرة واحدة.. نظرة بريئة، لكنها ذات مغناطيسية جادة وحاسمة. اكتشف فجأة وهو يهرب منها أن زى العمل الذى ترتديه ممزق فى بعض المواضع، فعاد ينظر إلى العاملات اللاتى لم يَعُدن للعمل واكتفين بالمتابعة والترقب، ولاحظ أن ملابسهن أيضاً شبه بالية.

أسرع بالخروج من العنبر ووراءه السيد طربوش رئيس العمال.

- هل هى عاملة جديدة!

- جديدة.. هل نسيتها!؟.. إنها مريم بنت عم خطاب الخفير.

- سبحان الله.. خطاب أبو شكل عجيب. تكون له بنت بهذه الصورة.

- لا تنس أن زوجته كانت آية فى الجمال.

- كانت!

- نعم.. لقد قصصت عليك قصتها من قبل يا يسرى بك.. ماتت فى حادثة أتوبيس منذ سنوات.

- ومتى جاءت هذه البنت؟

- من سنتين تقريباً.

- غريبة!

- مستحيل تكون حضرتك مدة شهرين نسيت.

تنهد يسرى ثم أمر لهن ببدل جديدة.. توقف طربوش لحظات، ليتأكد مما سمع، وعاد يسأله عما إذا كانت البدل لكل خطوط لعب الأطفال أم للعرائس فقط.. تركه يسرى وصعد السلالم. على عجل، دخل مكتبه.. طلب من نزيه رئيس الحسابات كشف حساب البنك،

فوجئ بالمبالغ التى سحبتها زوجته فدوى، وعلم أن أخاها حضر إلى المصنع وضرب أحد العمال وأخذ السيارة نصف النقل، وأعادها بعد يومين مكسورة الفانوس الأيسر، والرفرف الأيسر وبدون المرآة الجانبية.

هز رأسه أسفاً.. الزوجة مسرفة ومزعجة.. أخوها فاشل فى العمل الوحيد الذى قام به مع شريكه شريف الجمل واستقل شريف بالشركة واستمر بنجاح، وها هو ساهر يجوب الشوارع.. أما ولده فهو حالة بشرية خاصة.. والطب.. فيما يعلم.. لم يتوصل لعلاجها .. ولده الذى بلغ الثامنة.. ذكى لكنهّ كذاب وفتان. لا يتوقف عن اللعب بأى شيء وفى أى وقت.. عالى الصوت.. مخرب.. لا يخضع لمدرسة أو مدرس ولا يتعلم كلمة.. هو وأمه يمارسان كل ألوان الدلع المقزز.. لماذا يجيء ولده كذلك.. وهو الذى لم يسئ قط لأبيه!

حاول توجيهه مراراً، لكن أمه كانت ترفض حتى تأنيبه على خطأ، وتشكوه لكل من له عليه تأثير مثل صديقه الأثير صلاح علام، وأخيه الأكبر فائق عميد الشرطة المتقاعد.

إنه يشعر بتعاسة قاتلة لأن ولده على هذه الصورة.. الأمر لله.. العمل هو الحل.. اتصل بالمؤسسة الوطنية للمشغولات المعدنية يسأل عن قطع الغيار.. كان ينوى أن يسبّهم جميعاً حتى المهندس راغب نفسه، أحس شيئاً ما بنفسه يكبح جماح ثورته ويجعله يقول بهدوء:

- لقد ضيعتم ثقتى.
- ثقتك فى محلها.. ثلاثة أيام على الأكثر.
- وعد؟
- وعد.

استراح فى كرسيه الدوّار وفوق رأسه صورة كبيرة لأبيه واقفاً، وبيده عصاه.. مال بظهره تماماً وأغمض عينيه.. لم يكن يفكر فى شيء محدد، أحس أنه فى زورق صغير يتهادى فى دلال فوق الموج الوديع، وتبين أن الأيام كانت تتلون بأحبار العادة القائمة، والقلب على سرير

الضلوع ضامرٌ ومكدود..

سنتان مرتا الآن وهو يشعر أن كل الأيام الجميلة مضت إلى غير رجعة.. سنتان لم يذق خلالهما يوماً هنيئاً واحداً منذ رحل رامي، أما الآن، فهو لا يدرى بالضبط من أين تنبع تلك الموسيقى العذبة التى لا تتسلل فقط إلى أذنيه. بل تنفذ من جلده وتتجاوزه إلى كل خلاياه وأعصابه وعظامه، ومُخه وقلبه وأمعائه وعينيه وحتى أظافر قدميه.

تمثلت له فجأة: تلك البنت الطويلة القوية الصامتة وعيناها.. عيناها كانتا تحدقان فيه.. تقتربان ثم تتسعان.. تحيطان به وتلتهماه.. تغلقان عليه الرموش الطويلة وتتركاه على باب المدينة المضيئة داخل عينيها، حيث يصبح المكان واحداً فسيحاً ومتألقاً..

يتنفس بعمق ويمضى راضياً متلذذاً وسابحاً، ثم يختفى وجوده ليصبح مجرد سعادة غير متجسدة.

.. كم هو غريب ذلك التلاشي الجميل.

جاءه السيد طربوش وسلمه خطاب هيئة الآثار الذى تؤكد فيه استمرار التنقيب. حدّثه عن بعض إصابات العمال فى وحدة البلاستيك، وعن تسليم كل المخزون، وعن الضرائب الجديدة التى فرضتها الحكومة، وحدّثه عن حريق صغير فى مخزن الطالبية.. والمصروفات التى أنفقت على السيارة النقل لإجراء الفحص الفني لتجديد رخصتها.. أبلغه بنقص كميات البلاستيك والفرو، وضرورة طلب لعب من شركة ساكوسي.. حدّثه عن الإيرادات والطلبيات العاجلة..

مضى يسرى يهز رأسه بعد كل عبارة ويقول:

- غيره يا عم سيد.

يذهب السيد بعد أن يصب كل ما عنده فى حجر صاحب المصنع، ويخلص ضميره الذى تعود ألا يبقى فى بطنه حرفاً.. ويتركه لايزال فى زورقه السابح.. حجرة كانت فى القلب مغلقة يشتعل على بابها النور الأسود، من يرنو إليه يتخدر.

نهض يسرى ومضى إلى الممر الضيق الذى يفصل بين مكتبه وحجرة المحاسبين، وأطل من النافذة التى تشرف على العنبر، حاول ألا يسمح لجسده أن يدخل فى مدى العيون.. وقف بعيداً بحيث لا يكاد يرى شيئاً إلا العاملة .. العاملة التى لم تترك مكانها منذ سنتين. بينما يقول إنه لم يرها إلا اليوم.. ها هو يدرك أخيراً أن للصمت لغة جميلة وبهاء..

الشىء الذى أثار دهشته إلى درجة لا يستطيع السكوت عليها، أن البنت لم تتغير وقفتها ولا نظراتها ولا أداؤها عما كانت عليه وهو أمامها فى العنبر.. كل العاملات يثرثرن ويمضغن اللبان ويغنين ويصفرن، ويعبثن بشعرهن ويضحكن.. وها هن يُخرجن ألسنتهن الحمراء، وبعضهن يؤدين حركات لها مغزى.. أما هى فإنها كما هى.. عمل وهدوء.. منظر هائل الجمال والعظمة.. واحد وخمسون امرأة فى العنبر الكبير.. كلهن كوم وهى وحدها كوم.. تذكر «أبو الهول»..

اطمئن أيها الصديق.. أخيراً عثرت على ابنتك.. إنها هى التى يمكن أن ترضى عنها لى رفيقة.

عاد إلى مكتبه.. أحس أنه عصفور.. كيانه مرهف يطير فوق كل الأكوان.. يهبط كيف يشاء ومتى يشاء.. ما هذا الجمال الذى فى الكون كيف غاب عنه؟.. من تُراه الذى يحاول أن يشوهه، ولماذا يتحدث الجميع بغضب، ولماذا يفتنون ويكيدون بعضهم لبعض، ولماذا يتشاجرون ويسرقون ويقتلون؟! سمع صوته الآخر.. اكتشف أنه اثنان، وربما واحد، لكن من تراه من بينهما الذى يحمل الآن جموحه.

إن كل شىء يبتسم حتى الموت.. والأرض تبتسم والسماء.. البحر والعيون والشفاه والقلوب.. الآلات والسيارات.. العمارات والأشجار والأرصفة.. الكل يبتسم.. تنفس بعمق وترك المصنع.

شرع يتجول بسيارته فى الشوارع الفسيحة.. إلى أن غدا فى شارع الهرم ومنه إلى سقارة.. فكر فى مريم.. وتساءل عن مدى إمكانية الزواج بها..

لم أدرك فى يوم من الأيام عظمة الخالق فى إتاحة الفرصة للرجل بالزواج من أربعة إلا اليوم.. عادة ما تكون التجربة الأولى متعجلة بحكم الطيش واللهفة..

- لم يكن فى حالتى أى تعجل.. لا يجب أن يدعى أحد ذلك.. إنه اختيارى، لكن الحرية الزائدة وخيمة العواقب .

كيف يفاتحها، وهل يتحدث بنفسه أم يكلف أحداً غيره؟ وما موقف زوجته وأهلها، ورأى أخيه فائق.

انتهى إلى أنه لا يعبأ بكل هذا مادام قد اكتشف أن الصبابة لازالت لها فى قلبه جذوة متقدة.. ظل شارداً طيلة النهار.. يسترق إليها النظر حتى انتهت ساعات العمل وتحركت العاملات خارجات وهى كما هى.. فقط تبتسم، وتحييهن بعينيها ورأسها فى رصانة، وبسمتها بسيطة ومعتدلة تزين شفتيها.

عاد يسرى إلى البيت.. كان يشعر بانفراج أزمته نسبياً، وحاجته إلى الحديث مع خالد وسها وفدوى.. جلسوا جميعاً أمام التليفزيون.. جاءت كوثر وزوجها لمعى، وجاء زياد وخطيبته وظهر أخيراً ساهر، أخبرهم أنه سيتزوج.. فرحت فدوى لهذا الخبر وطلبت أن تعرف من هى فرفض، وبعد إلحاح قال إنها: نجوان لطفى المطربة الصاعدة.. أخذ خالد فى حضنه .

قال يسرى: المهم العمل يا ساهر.

قالت فدوى: ذكرتنا يا يسرى.. ماذا فعلت فى لقائك يا ساهر مع رئيس هيئة مترو الأنفاق.

ابتسم ساهر وهو يقول لها: قالوا إننى سأتسلم عملى لديهم يوم السبت؟

أسرع يسرى يهنئه وكذلك زياد وكوثر ولمعى، قال ساهر:

- هناك خبر مهم آخر.

قال زياد: ما حكايتك اليوم؟.. أنت أبو الأخبار الحلوة.

قال ساهر : الدكتور رمزى أرسل لى عقداً للعمل فى الإمارات.

قالت فدوى : مبروك، لكن مادمت ستتسلم عملك فى الأنفاق .. هذا أفضل .

قال لمعى : السفر أفضل.

وقال يسرى : أنا مع لمعى .. للسفر فوائد كثيرة من بينها العمل والدخل وتغيير الأجواء واكتساب الخبرة.

قالت كوثر : ألف مبروك يا ساهر .. خبر فعلاً يستاهل الاحتفال ..

قال ساهر وهو ينهض : وأنا عملت حسابى.

أخرج من حقيبته شريط فيديو عليه مسرحية مضحكة ممنوع عرضها بمصر .. جاء عرضاً ملائماً جداً للجميع وخاصة يسرى .. امتد السهر مع المسرحية حتى ما بعد الثانية، فى حين كان يسرى يتساءل بدهشة .. هل يتصور أحد أن يوماً سيجىء أفكر فيه فى غير فدوى أو على الأقل عدلات ؟. غريبة.

(٢٠)

فى الصباح دعاها للقائه فدخلت وعلى شفتيها ابتسامة صافية .. شجعته البداية .. أجلسها أمامه .. وبعد لحظات استطاع أن يقول لها :

- تصورى نسيت أنك ابنة عم خطاب .

لم تلتف إليه .

- هل أنت مرتاحة فى العمل ؟

ظلَّت كما هى منكسة الرأس .

- إذا لم تكونى مرتاحة .. يمكنك أن تطلبى الانتقال إلى أى عمل يعجبك .

بقيت ساكنة .

- هل أنت ..

دخل طربوش ، ولما رأته وقفت .. فقال لها يسرى :

- اجلسى .

لم تجلس .. أشار لها طربوش أن تجلس .. فجلست .

قال يسرى :

- إنها خجولة بشكل غريب .

قال رئيس العمال : فتاة طيبة .

- مكسب كبير للمصنع .

- أنت الخير والبركة .

- أنا أقصد ما أقول .

تمهل طربوش لحظة ثم قال : لست أفهم .

أعاد يسرى كلماته .. كلمة كلمة : أقصد أنها مكسب لصاحب المصنع .

عاد طربوش يدور حول نفسه دون أن يفهم ، لكنه تذكر ما جاء من

أجله قال : أظنك لا تعرف أنها . . خرساء .

تبدلت تقريباً جميع الألوان على وجه يسرى . . . كأن طربوشاً قال له إن زوجته ولدت تليفزيوناً أو أن ولده خالداً أصبح شجرة . . من أعماق ذهوله قال :

- ماذا ؟ !

- نعم . . إنها خرساء . . مثل أمها .

ضرب يسرى رأسه بكفه ثم أسقطها على المكتب . . لا يريد أن يرى شيئاً ولا يسمع المزيد . . الحجرة تلف بسرعة . . وتنفصل عن المبنى وتنطلق به بعيداً في دورات مجنونة حتى فقد الوعى تماماً .

أشار السيد للبنت كي تعود إلى العمل ، قال :

- إلى هذه الدرجة أشفقت عليها .

- . .

- الدنيا مملوءة . . فكّر في نفسك . انتبه لمصنعك وبيتك . . أنت حساس أكثر من اللازم .

فكّر بالعمل هرباً من صورة مريم التي كانت تذهب وتجيء ، وأمامه مفروشة حيرته الساطعة إلى أن ضاق بالمكتب ، فتركه إلى أحد الكازينوهات . . اختار جلسة بين الخضرة والهدوء . . تأمل ما حوله من ورود تلتف حول نافورة صغيرة تعمل بحماس دائب لترسل قطرات من نداها الرطب إلى الورود الباسمة ،لم يتصور أن يأتي يوم يصبح فيه هكذا منجذباً إلى إنسانة بسيطة إلى هذه الدرجة وخلال دقائق .

إذا عرفت فدوى أنه يفكر ، مجرد تفكير في هذه العاملة . . سوف تقوم القيامة على مستوى مصر كلها . . على أية حال لا مجال للحيرة والانشغال مادام أمرها قد انتهى . . وبعد برهة سأل نفسه :

- وماذا في أن تكون خرساء . . ومن قال إننى أريدها ناطقة ؟ أنا لا أريد غير قلب .

ساعدته نفسه .

- وماذا أخذت من الناطقة ؟

ذهب إلى «أبو الهول» ليفكر معه بصوت عال.. مر على صلاح علام قص عليه القصة.. كان يبدو مستعداً للمضى فى الأمر حتى النهاية، قال صلاح:

- كيف بالله يا أخى تكون صانعاً وتاجراً وفى الوقت نفسه عاشقاً.

أجابه المستهام: أنا لم أرد أن أكون..

لم ينتظر اليوم التالى.

مرّ على المصنع دون أن يتنبه أن العاملات خرجن، والمصنع أغلق أبوابه ولم يجد رئيس العمال.. ذهب إلى بيته: لا بد أن نستطعم نكهة الروح.. يا ابن آدم أدرك ذاتك.. لفّتك خيوط من حرير.. لكنك بها تتعثر، والحب ينتظرك.. كادت والله تنطفئ روحى وأنا كالثور دائر.

يسلمنا الصباح إلى المساء.. ويلقينا المساء على أرصفة مهجورة انفجرت بداخله شظايا الشغف المبهم بالحياة.. الحياة بكل تناقضاتها.. بالأحلام والأطماع.. القيود والعقد.. الآمال وغيمات الألم.. شغف عار يجرى فى جنبات الروح. كالمجنون ملتاثاً يلهبه سوط الزمان واللهفة

- مريم أم فدوى أم عدلات، أيهن أريد؟.. سؤال يتعين الإجابة عليه

دهش السيد طربوش لزيارته: صارحه بالسبب، ولم يخف عنه السيد معلومة جديدة كانت كافية لأن تُظلم الدنيا في عينيه، وتخرجه ساخطاً على حظه حتى يذهل عن سيارته، ويندفع سيراً على الأقدام التائهة.

البنت مخطوبة لشاب مثلها.. مقصدار فى شركة للملابس الجاهزة ولا يبقى لهما على الدخول إلى بيت الزوجية إلا بعض اللوازم والاستقرار على مصير عم خطاب.. يرفض الذهاب للعيش معها وترفض هى تركه وحيداً فى داره وهى التى تعد له كل شيء، وتقوم على خدمته بعد أن تقاعد بسبب روماتيزم تغلغل فى مفاصله من طول العهد به خفيراً يسهر الليل ويشرب من برده القارس.

ظل عدة أيام يراقبها، يغزوه شطح التأمل.. ينزل كثيراً إلى العنبر

أو يقف في الممر الأرضى أو العلوى يسترق النظر.

كان متنبهاً تماما إلى ذلك الشعور الذى ينفذ فيه تدريجياً ويسيطر عليه، وفى قلب هذا الشعور المتسلل كانت مريم تجلس ساكنة، لا تفعل شيئاً إلا أن تسلط عليه عينيها وصمتها الجميل، بينما هو يعانى من الضجيج والثرثرة والزحام الذى يتعثر فيه كل شيء.

أصبح مع الوقت متأكداً أنه يتغير؛ يهدأ.. يرق ويذوب.. أصبح واعياً بما أصابه فى الصميم، لم يكن يتصور أن يتغير إنسان بهذه السرعة.. الإنسان يتركب ويستقر ويمضى وفق البرنامج الأول، ونادراً ما يتحول.

تسرب إليه من جديد الإحساس القديم بأن للطفولة طعماً خاصاً وروحاً غضة، ويجب أن تسرى فى المصنع هذه الروح لتتسق مع اللعب.. إننا ننتج لُعباً للأطفال بنفس الطريقة التى تعمل بها مصانع الحديد والأسمنت والأحذية.. فيض ثر من الرؤى والعوالم الجديدة يتكشف له كما تكشفت له من قبل تلك التجاعيد التى وسمت حياته السابقة، ومع ذلك علا وهج الجمر بأعماقه، على الرغم من تساقط قطرات من الماء البارد.. وبينهما يتقلب القلب بلا قرار بحثاً عن شارع الغبطة.

قرر فجأة زيادة أجور العمال ١٠٪ وأصيب سيد طربوش بدهشة تاريخية، وبُهت المحاسبون الذين شهِدوا ثورته قبل ذلك بأيام على حالة أرصدته فى البنوك.

نزل إلى العنابر وسأل العمال عن رأيهم فشكروه بالتحيات القلبية والهتاف والزغاريد.. وأشرق المصنع بنور المحبة.. وصل إلى مريم.. رفعت إليه عينيها وابتسمت بكل ما فيها.. سألها بيده عن شعورها وأحوالها.. كانت أكثر حيوية، وبدا مبتهجاً لأنها سعيدة، ولأنه استطاع أن يوصل إليها أفكاره.

لم تعد العاملات ينظرن إليه وهو يحدثها، أصبح ينزل إلى العنبر

كثيراً فيربت على العمال ويمر على مريم. يتوقف لديها لحظات.. تعاظم شعوره نحوها دون إرادته وإرادة الظروف التي تعيشها.. لم يجد من يستمع إليه كما يجب إلا صديقه صلاح الذى قال له: تذكر أن رمزى شقيق فدوى هو زوج أختك.. لم يحر يسرى جواباً وتعكرت صفحة وجهه وما لبث أن مضى.

قبل أن ينصرف العمال فى أحد الأيام استدعاها إلى مكتبه وسلمها لفة لأبيها.. لم تفتحها إلا في البيت، كان بها ثوبان جديدان.. واحد لها والآخر لأبيها.. شهقت عندما فضّت اللفة في البيت ورأت فستانها، وتأثر والدها وشرق بدمعه.. ارتمت بين أحضانه وتذكرا معاً أمها.. تمنى الأب وابنته فى وقت واحد لو كانت موجودة لترى الأيام وهى تتلون بالبهجة.

أمر بإعادة طلاء حجرة مكتبه المتربة، وضم إليها حجرة صغيرة. أحضر دولاباً زجاجياً عرض فيه إنتاج الشركة من لعب الأطفال، وأمامه فى الجانب الآخر منضدة عليها عرائس.. عرائس من صنعها.. كم من مرة تحدث إليها وطالبها بالتوسط بينه وبينها.. شغلته فكرة أن يركب جهازاً للعروسة فيه تسجيل لكلام جميل وموسيقى أو صلوات.. ثم عاد وتراجع عن الفكرة، وفى الوقت ذاته تنامت بداخله رغبة قوية أن يتعلم طريقة التحدث إلى البكم، وبحث عن مدرسة الصم والبكم، أحضر له صلاح شخصاً يعلمه الإشارات المعبرة عن أفكاره حسب القاموس المتداول.

جرب بعد التدريب أن يتحاور معها فحالفه التوفيق.. بدت مريم مندهشة لهذه الخطوة وسعيدة.. استطاع أن يحكى لها مواقف كثيرة ويضحكها.. فتزداد دهشتها وتتألق فى قلبه وعلى ملامحه أضواء المحبة.

فى أحد الأيام.. اصطحبها بسيارته إلى منزلها وقدّم لها علبة من الشيكولاتة.. كانت بالسيارة.. حاولت أن تردها.. قال:

- إنها ليست لك، إنها لعم خطاب.

فى مرة تالية قدّم لها زجاجة عطر ثمينة حاولت ردها وألح، لم تقتنع بما قاله لها بإشاراته من أن كل ذلك تقديراً لوالدها الذى خدم الشركة طوال ثلاثين سنة منذ كان مع الحاج إبراهيم شلتوت.

كان يحس إحساساً غامراً بالعطف عليها، سعيداً بتلك الوداعة التى أضاءت الحجرة الصامتة، حتى بلغ الشعور الممتلئ بها أن قرر الزواج منها وليحدث ما يحدث.

تحدث إلى والدها فرحب ووعد بإقناعها.. لكنها رفضت، وشرعت تستعرض تصرفاته معها، وتضايقت لأنها لم تنبع كما توهمت من شفافية، ونبل وذوق مرهف ولكن من مصلحة ورغبة، زاد سخطها على بعض النفوس الطامعة فيما لا تملكه.

فى الصباح الباكر كان بالمصنع يراقب بوابته.. ليكتشف مبكراً ملامحها وهى مكتسية بالفرح، لكن وقفته طالت وحضر كل العمال وبدأ العمل دون أن تحضر..

تغلغلت فيه. ما العمل؟.. صرفته تقريباً عن إدارة المصنع، وكلما حاول أن ينتزع من بين يديها قلبه، وأن يُخلص من عينيها مصيره الواثق باندفاعه نحوها، حاصرته أفكاره التعسة عن أسرته ذات الذكريات العفنة.

هل يكون طموحه النزق للبحث عن المرأة التى تحمل شروطه، سبباً فى غرقه بالنهر الذى يخوض فيه؟.. لماذا يحرص دائماً على أن يربط المرأة بالسعادة والتعاسة بوصفها مصدراً وحيداً لأى منهما؟

تمثلها فى منامه ويقظته.. وفى العمل وخارجه.. فى وجه زوجته وفى الصور المعلقة ووجه طربوش وعلام.. ثمة قوة غريبة تغرسها فيه وهو راضٍ تماماً ومستمرئ.. صورة تجمعه هو وطيفها الرصين.

الحل الوحيد للخروج من هذه الحيرة والانتباه بدرجة متوازنة لشئون حياتى هى الزواج.. لست أول المتزوجين بثانية.. إنها مخطوبة.. لا شأن لى.. الناس.. لا يهمنى رأيهم.. زوجتك.. أنا حر.. للكون نظام..

لقد احترمته إلى درجة مثالية. ما معنى أن تمد يدك لامرأة ليست لك؟ ليتخل عنها الآخر.. وإذا لم يتخل؟ هناك ألف وسيلة لجعله يتخلى.. يا .. انتهى..

مأجور أنا ومدفوع.. لابد أن قلبى كان مدفوناً تحت الرماد.. أمى وبلا تجربة.. ما قيمة ما أفعل وما نفعل جميعاً إذا لم يكن من أجل سعادة القلوب.. إنها اكتمالى ومعناى.. لن أستسلم أبداً مهما كانت الموانع .. هى اليمامة وأنا رصاصة أطلقت ولا أقدر على العودة إلى رحمى.

نحن لا نمشى ولكنها بنا الأرض تمشى، تتجه وتقترب وتبتعد ثم تلقينا وقت تشاء.. قد يكون قدرى فى قلبها هيناً أو هزيلاً، أما أنا فبها مشحون وتملأ كل خلاياى.

والله.. الله.. لا أستطيع أن أضع عينى فى عينيه، لكنه لن ينظر إلىَّ إلا بعين الرحمة التى تليق به وبمخلوقاته.

ما الذى كان يمكن أن يحدث.. لو كانت إلى جمالها وشخصيتها تنطق وتسمع، هل تُراها ستكون أكثر رحمة أم أكثر دلالاً؟!.

لم يرح لحظة على مقعد طيلة النهار، ولم يأكل لقمة، ولم يتوقف عن التدخين وتجرع أقداح القهوة والشاى... وفى الغروب ذهب إلى صلاح، وتناقشا كالعادة. وجده صلاح مستسلماً لقلبه. قال يسرى: القلب لا يعرف اللعب ولا حكمة الاختيار.. إنه النموذج المثالى للحاكم الديكتاتورى.

لم أعد أعرف ماذا أفعل.. محاصر أنا بين قلبى وعيون أهلى.. فدوى نجمة طفولتى وصباى، وأخوها زوج أختى.. وهى أم أولادى.. وهى الآن طاردتى من مجرة الحب والراحة.

إننى جد حزين إذ تخبو فى قلبى حرارة الشوق إليها.. إننى جد حزين لأننى أشعر ببرودة شديدة إزاء جمال فدوى.. لقد تأكد لى أن الجمال بلا مشاعر مقبرة، وأن الجمال غير موجود بذاته ما لم يوجد القلب الذى يشعر به.

لما كانت في الليل بقية فقد مر على أخيه فائق فراراً من زوجته ومن طيف الجواد الشارد.

في اليوم التالي عاد للمراقبة.. لا بد أن أباها تحدث إليها.. بقي على جمر الانتظار المتقد حتى الظهر، ثم قرر أن يقطع عرقاً ويسيل دماً.

فوجئت به أمامها وهي تعين أباها على الدخول، وكان يقضي بعض الوقت في الشمس أمام الدار.. سألها عن غيابها.. لم ترد.. سألها عن رأيها فيه وفي الزواج منه.. لم ترد.. ألح، سألته في دهشة تصل إلى حد الانزعاج:

- كيف يخطبها وهي مخطوبة؟ أشارت إلى رأسها: أين عقلك؟

حكى لها عن ظروفه وأحواله، وعن حبه لها وأنه أول حب وأول عالم جميل يعيش فيه ويحرقه.. حدّثها عن فراغ حياته بدونها، بل ضياعه إذا لم ترح قلبه.

حاول معها أبوها وبعد يومين وافقت.. قال لها يسرى إن أباها سيعيش معهما في الفيلا التي استأجرها لها في شارع الهرم، سألته عن زوجته، فأكد أنه لم يعد يفكر فيها على الإطلاق وفي الوقت ذاته لن ينقصها شيء أبداً.

ثار فائق كما لم يثر من قبل.. سأله كما سأله صلاح من قبل:

- هل نسيت أختك؟

رد يسرى: أختي في الإمارات.

زادت حدة فائق: لكنها حية ترزق وسوف تعرف، ومن حقها عليك أن تحميها من زوجها، بألا تكون سبباً في نشوب أي خلاف بينهما.

اعترف فائق بأنه يرضى بأية زيجة نكاية في فدوى، لكنه لا يوافقه على فكرة الزواج من الخرساء حتى لو كانت مارلين مونرو.

لكن الرصاصة انطلقت.. والقلب الذي تفجر بالحب اندفع صوب المحبوب.. ولتكن النتائج ما تكون.. توارى خلف السحاب كل شيء.. كل ما قيل له لم يسمعه، وكل ما واجهه لم يأبه به، ومضى بكل ثقة

وإصرار صوب هدفه، وفى قلبه قوس العناد مشدود.

حضرت مجموعة من الأصدقاء مع المأذون وطربوش.. انتظروا فى الفيلا إلى أن ذهب يسرى وأحضر العروس وأباها، عُقد القران وأكل الضيوف وشربوا، ولم تجد مريم إلا الدموع تعبيراً عن مشاعرها فى هذه الليلة.. انصرف الجميع وكان لابد أن ينصرفوا، ودخل والدها حجرته بالدور الأرضى وصعد العروسان إلى الثانى.. ورغم هذا العالم الجديد الذى كان يتخلق فى الدور العلوى كانت الفيلا تسبح فى بحيرة الوداعة والسكون.

كان المنزل ملائماً جداً للعجوز.. صحى مبكراً وتسلل إلى الحديقة وجلس فى الشمس، وأعد لنفسه على موقده «السبرتو» كوباً من الحلبة.. إنه الآن بعيد عن منطقته التى عاش فيها سنوات طويلة، لكن عمله خفيراً جعله قليل التعامل مع الناس وخاصة بعد وفاة زوجته، لذلك فهو قادر على العيش فى أى مكان تطلع فيه الشمس ويرى ابنته سعيدة.. هذه هى فقط الحياة.

(٢١)

أسرع إليه خالد ولحقت به سها، بقيا بين أحضانه، سألاه عن غيابه، تعلل بالعمل، تفادى نظرات فدوى.. تحمم ودخل مع الولدين حجرتهما وبقي معهما حتى أسكرهما النعاس فغطاهما وتأهب للرحيل.. استوقفته فدوى، قال إنه استأجر شقة يأوي إليها بعض حين، لأنه بصراحة لا يستطيع الحياة بشكل دائم في الفيلا.. أصبحت مملة.. كل ما فيها يثير أعصابه..

سافر ساهر إلى الإمارات وكان يمكن أن يعاونها في مراقبة الزوج المارق.. استعانت بمن يحمل إليها أخباره.. علمت أنه استأجر فيلا وليست شقة كما ادعى.. أدركت بأن المسألة أكبر من توتر أو ملل.. وأن في الفيلا امرأة، جددت التكليفات للحصول على معلومات أكثر، حتى صرعتها الحقيقة القاسية.. حطها الذهول.. دق جسدها وسحقه.. سقطت في بئر الحيرة والضياع.. توقف عقلها تماماً عن العمل.. فقدت النطق تقريباً عدة ساعات: هل هناك زلزال؟!.. لماذا تدور الأرض على هذا النحو المجنون؟! لماذا تتقدم مني الجدران وتحاصرني، ويهبط السقف ثم يبتعد.. الصور تتحرك.. تخرج منها أظافر وعيون حمراء تدنو مني وتخمش بعنف وجهي.. تجذب شعري.. الأرض لازالت تهتز وتدور. ترجني رجاً كأنها تريد أن تخرج مني شيئاً أو تسقط رأسي.. رأسي ثمرة ناضجة على وشك السقوط.. المرآة تقترب مني ويطل منها وجه قبيح يرعبني.. هجوم شرس من كل ما حولي.. هانم وضعت لي سُماً في القهوة.. الفنجان ارتفع ليسقيني رغماً عني، دفعته بعيداً. سقط على الأرض وانكسر، نعم.. لا بد أن أقاوم، سوف أدفع كل ما يهاجمني، لن أصمت.. سوف أرد كل الأشياء التي تفكر في إيذائي..

ها هي هانم قادمة بكوب الماء.. خذي..، ألقيته في وجهها.. جرت ،

البنت مرعوبة.. ها.. ها.. هذا حسن.. وهذه لك.. خذى.

انطلقت فدوى فى تحطيم الأشياء و ضرب الأشياء بالأشياء.. الكرسى فى المرآة.. المنضدة الصغيرة فى النجف وفى الصور، والراديو فى الباب، الأباجورة فى السقف.. المنفضة فى النجف من جديد.. المنفضة الثانية فى باب آخر.. أسرعت هانم فأغلقت الباب على خالد وسها بالمفتاح ووضعته فى صدرها، اتصلت بيسرى وأكملت غلق الأبواب جميعها.. حاولت فدوى فتحها.. عجزت عن فتح باب غرف النوم والمكتب والأولاد.. دخلت الحمام وهشمته، والمطبخ شبعت فيه تحطيماً.. ارتدت إليها بعض الأوانى والأكواب فأصابتها بقسوة.. نزلت إلى الحديقة تمزق النباتات والورود.. حضر يسرى وأمسك بها بقوة.. حاولت أن تضربه، لكنها كانت تقريباً قد تهاوت وانتهت.. صفعها بشدة وحملها إلى غرفة نومها.. ساعدته هانم فى وضعها فى الفراش ومحاولة تضميد جروحها.

شرعت هانم وخشبة ومحروس فى ترتيب الشقة.. طلب منهم يسرى العمل فى صمت تام وعدم نقل أية كلمة، إلى أى مخلوق. أية كلمة تعنى طرد الجميع بدون تحقيق.. اتصل يسرى بمكتبها بالتليفزيون يعتذر عن عدم حضورها اليوم وغداً بسبب نزلة برد.. بقى فى المنزل وطلب إلى هانم أن تأخذ خالد وسها إلى حديقة الحيوانات ولا يعودوا إلا مع الغروب.

اتصل يسرى بمكتبه يعرفهم أنه فى البيت، ويمكن الاتصال به فى أى وقت حتى العصر.

بعد الظهر أفاقت.. سألها عن السبب فى ثورتها لم ترد.. ظلت صامتة.. أحضر لها القهوة.. حاول معها مرة ومرة.. اكتفى بأن قال لها: إن عليها أن تقبل الواقع لأنه نتيجة حتمية لتصرفاتها العشوائية.. وعليها أن تشغل نفسها بمجدها الذى لم تفكر فى غيره، وسوف يترك لها الفرصة والبيت أيضاً لتنشغل بنفسها أكثر. أرسل خشبة ليحضر

لهما غذاء.. أكل ورفضت.

قبل الغروب تركها إلى مريم.. عاد خالد وسها وهانم..

بالليل سهرت تمزق في صوره وملابسه قطعاً صغيرة.. سوّت أكوام القطع حتى أصبحت تلاً في قلب الغرفة، وألقت عليها عود ثقاب مشتعل، كانت تود لو تنتظر حتى يحضر ثم تشعلها أمامه.. لم تستطع صبراً. فكرت أن تمر على كل البيوت وتفضحه، وتذهب إلى المصنع وإلى أهله فرداً فرداً، وترسل الخطابات إلى ساهر ورمزى وكوثر، وتتصل بعملائه وأصدقائه خاصة صلاح.

قررت أن تبدأ بصلاح.

قال لها: من حقك أن تثورى.. فتصرف يسرى غير موفق وليس هو الحل لأى خلاف بينكما.. لكن المشكلة، أنك لست شخصية عادية.. أنت نجمة ومشهورة.. وأية كلمة سوف تمسك وتشوه صورتك، وأنصحك بضبط النفس والصبر، لأنى واثق أنها نزوة.

رضيت عن بعض كلامه.. لكنها لم تقتنع، تريد أن تنزل به عقاباً يجعله يندم طيلة عمره على كل خطوة خطاها فى هذا الطريق: المجنون نسى أنى فدوى المهدى.. وسوف يعرف من هى فدوى المهدى.

شكت لأبيها.. انزعج الرجل وطلب يسرى.. تهرب منه.. وأخيراً عثر عليه.. ذكّره بشكواه منها عدة مرات.. ثار الرجل وقال: ليس هذا هو الحل.. طيَّب يسرى خاطره ووعده بالتفكير فى الموضوع إذا التزمت فدوى الهدوء. زار الرجل ابنته.. دعته للإقامة معها.. وافق.

عادت تفكر فى كلام صلاح.. كلام طيب، لكن تنفيذه يحتاج إلى جبل. سمعتها. اسمها. شهرتها. برامجها.. الوزير. الزملاء.. الصحف.. على وشك أن تصبح رئيسة قناة.. لا.. لا.. لا بد من سحقه أولاً.. لا بد..

أرادت من جديد أن تسخر من يسرى وزوجته الخرساء فى كل،

مكان.. لكنها اكتشفت أنها لا تستطيع.. لا تستطيع.. لا تستطيع على الإطلاق كل كلمة ستأكل منها هي، كل خبر سينهش في لحمها ويهدم في بيتها وكيانها..

بهدوء شديد طلبت من يسرى الطلاق.. فوجئت به يقول لها: لو انطبقت السماء على الأرض لن يكون.. لن يكون حتى ولو بعد موتي.. حتى ولا يوم القيامة.. كادت تجن. إن الطرق بالفعل مسدودة تماماً وبقسوة، وأعصابها لا ترحمها.. أبداً.. لا ترحمها.

هل من وسائل لتعلم الصبر وتهدئة البال والقضاء على التوتر، وقبول الأمر الواقع حتى يرى الله فيه أمراً.. هل من وسائل تنقذ القلب والعقل من الانفجار.. كان والدها نعم الأنيس والمنقذ.

تسلت في البداية بقراءة المجلات والصحف. جلست طويلاً مع ولديها.. بدأ العام الدراسي.. أول سنة تدخل سها.. شرعت تقرأ الروايات والكتب.. تقضي وقتاً طويلاً أمام التليفزيون وتستمع إلى الراديو.. البرامج الثقافية والموسيقي.. بدأت تدريجياً تهدأ.. ثم تدريجياً شرعت في التغير الذى بدا إلى عهد قريب أمراً مستحيلاً.

كان الأمر ملفتاً للنظر بحق.. خفت حدتها ومالت أكثر للمكوث بالبيت.. قللت من نفقاتها وسهراتها.. أصبحت ترضى بالمبالغ التي يبعث بها إليها.. وطامنت أو كادت من غطرستها، طورت من ملابسها وتسريحات شعرها.

مهما كان التغير كبيراً وإيجابياً لم يكن يسرى يتصور أنها يمكن أن تهتم بزيارته هذا الاهتمام، وتسأل عن زوجته الجديدة في غير سخرية، وقد دعتهما معاً للعيش معها، لكنه رفض من أجل راحة الجميع، ولم يقنع بصدق نواياها وظل متوجساً مما تخطط له، حتى وهو يراها مقبلة على الصلاة والتسبيح.

دعتهما فدوى لحفل عيد ميلاد ولدها.. حضرت مريم.. ولكنها لم تكرر الزيارة.. وبقيت العلاقة محمولة على خيوط رقيقة من الود والحذر

وغاية المنى بالنسبة للجميع أن تمضى الحياة بينهم دون مشاكل.

بعد أشهر قليلة مات العجوز، وطلب يسرى من مريم أن تذهب للعمل لتطمئن عليه بعد أن شهد توسعات طيبة وتحسينات كبيرة فى خطوط الإنتاج ومبانى إضافية وزاد الإنتاج بشكل ملحوظ.. طلب إليها أن تستثمر وقتها الذى لا بد أنه طويل وفارغ وثقيل بعد وفاة أبيها.. وأنهى إليها رغبته فى أن تتولى الشئون الفنية.. وتوجيه العاملين.. لكنها رفضت دون أن تعترف له فى البداية أنها تتمنى أن تنجب.. كانت تشعر بداخلها بأمومة غلابة، ويناسبها جداً لو منّ الله عليها بطفل.

اهتمت بتزيين المنزل والحديقة، أصبحت تدخن مع ازدياد التوتر العصبى لديها.. ولم تعد ترحب بأى صديق لأنها لا تستطيع الجلوس معه ولا التحدث، ولا تحتمل الاكتفاء بالصمت والمشاهدة.

هل جفّت المياه فى الينابيع؟ .. لعله كان يخشى ذلك، فالحل إذن مشاركته النزهة والخروج إلى أماكن السهر، لكن ذلك أسهم فى تعميق سخطها إذ كانا يلتقيان فى كل مرة بناس يعرفونه، ويرونه وهو يتحدث إليها بإشاراته، وهى تتقلب من داخلها وخارجها على أسنة من حديد، تنهش فى دورة دائمة أعماقها وحشاها.

زارتها فدوى وأبدت معها لباقة وتماسكاً، لكن الزيارة أرهقت تماماً أعصاب مريم، وخاصة عندما رأت ولدها يتدفق حيوية وجمالاً، وقد هدأ قليلاً عن ذى قبل، وكبح جماح لسانه، ولم يعد مخرباً كما كان.. واهتم بدراسته بمعاونة أمه وجده.

(٢٢)

السجن تعلو جدرانه وتتعدد وتتقارب.. النور يختفي تدريجياً والغد يبتعد وكل ما يمكن أن يفتح طاقة في الروح للأمل والبهجة.. يتراجع. الأب رحل والوحدة تطل خلال كل شيء والسماء محايدة، يسري لا يجد ما يقوله، والصمت لم يعد كما كان من قبل ممتعاً ومثيراً، يزداد تعقيداً وكثافة.

ظهر أحد الأيام عاد يسري فلم يجد مريم.. بحث عنها في كل مكان. عند أقاربها.. عند فدوى.. في بيت أبيها القديم.. في المصنع.. دخله عنبراً عنبراً وحجرة حجرة، الفرن والورشة.. المخازن وتحت الدرج.. ذهب إلى المستشفيات وأقسام البوليس.. أسلمته الدروب إلى الدروب.. والشكوك والهواجس إلى غيرها.. الفضاء يمتد في روحه كلما سلمته حيرته للدهشة المستحيلة.. كان يريد ألا يعرف أحد اختفاءها.. إنها له وحده، وله أيضاً غيابها.

أين.. وأين وأين؟ أجاب عن كل الأينات.

لماذا ولماذا ولماذا؟ أجاب عن جميع اللماذات.

لم يصل إلا إلى موقف تحكمه الدموع، وفؤاده الذي ينزف كل ما في الشغاف.. هل كان حلم الياسمين وهماً.. أم ذا هو المكتوب على نصب الحب التذكاري.

ذهب إلى صلاح.. خرج معه واقترح بعض الأماكن العامة.. لم يجدا أثراً لمريم. أشار عليه بفكرة غريبة.. مكان لا يستبعد أن تكون فيه.. دون أن يفكر في الإمكانية أو المعقولية. أسرع يسري إلى هناك..

ضغط صلاح زر الجرس.. لم يفتح أحد.. تراجع يسري قليلاً، وضرب الباب بحذائه ضربة عنيفة لا تقل عن عنف الهياج الضاري بأعماقه.

انخلع الباب من قفله وانطلق صافقاً الجدار في دوي مفزع، وجدا

الاثنين متجاورين، الوجهان في اتجاه النور القادم من النافذة.. متحدين ذائبين.. لا يسمعان شيئاً ولا يريان ولا يتحدثان.. تواصل رحلتها العيون البريئة.. البيت بعد صفقة الباب غرق في سكون تام، وحلّق في عالم آخر متناغم ومنسجم.

ارتعد يسرى وانتفض جسده.. كانت أعصابه تحمحم متوفزة.. قبضت يد صلاح على يده بعنف. حرصاً على توفير صمت أعمق للعاشقين.. تدريجياً هبط بالون التوتر وانتظمت إيقاعات القلب، أدرك بعد لحظات أنه دخل خطأ عشًا لعصافير صغيرة، لا تدرك شيئاً عن الحياة وما يجرى فيها ولا تمتلك القدرة حتى على الفزع.

عاد.. عاد يسرى دون أن يستطيع انتشاق روحه التي يجرجرها خلف قدميه.

بقي وحيداً في فيلا الهرم.. زاره صلاح.. طلب إليه يسرى أن يحمل كل ما يخص مريم ويسملها شيكاً بعشرة آلاف جنيه ووعد بأن تصلها ورقة الطلاق بعد أيام..

كان يجلس ممدداً في الحديقة يدخن ويشرب البيرة، وإلى جانبه جهاز الكاسيت يستمع إلى الموسيقى، بينما ملامح وجهه تذوب في متاهات الشرود وهو يحاول استيعاب المشهد الذى انتهى إليه.

الأفق يضيق والشمس تختنق بحبل الغروب، تطلع إلى السماء، لاحت له غمامات رهيفة تبدو كمجموعة من الدببة النافقة، اتسعت في صحراء روحه مساحات الاستيحاش والخواء والنفى. لكنها ما لبثت أن تضاءلت عندما تفجرت فجأة عين رقراقة من حنين مبهم.

الهرم: ٩٤ - ١٩٩٥

المـؤلف

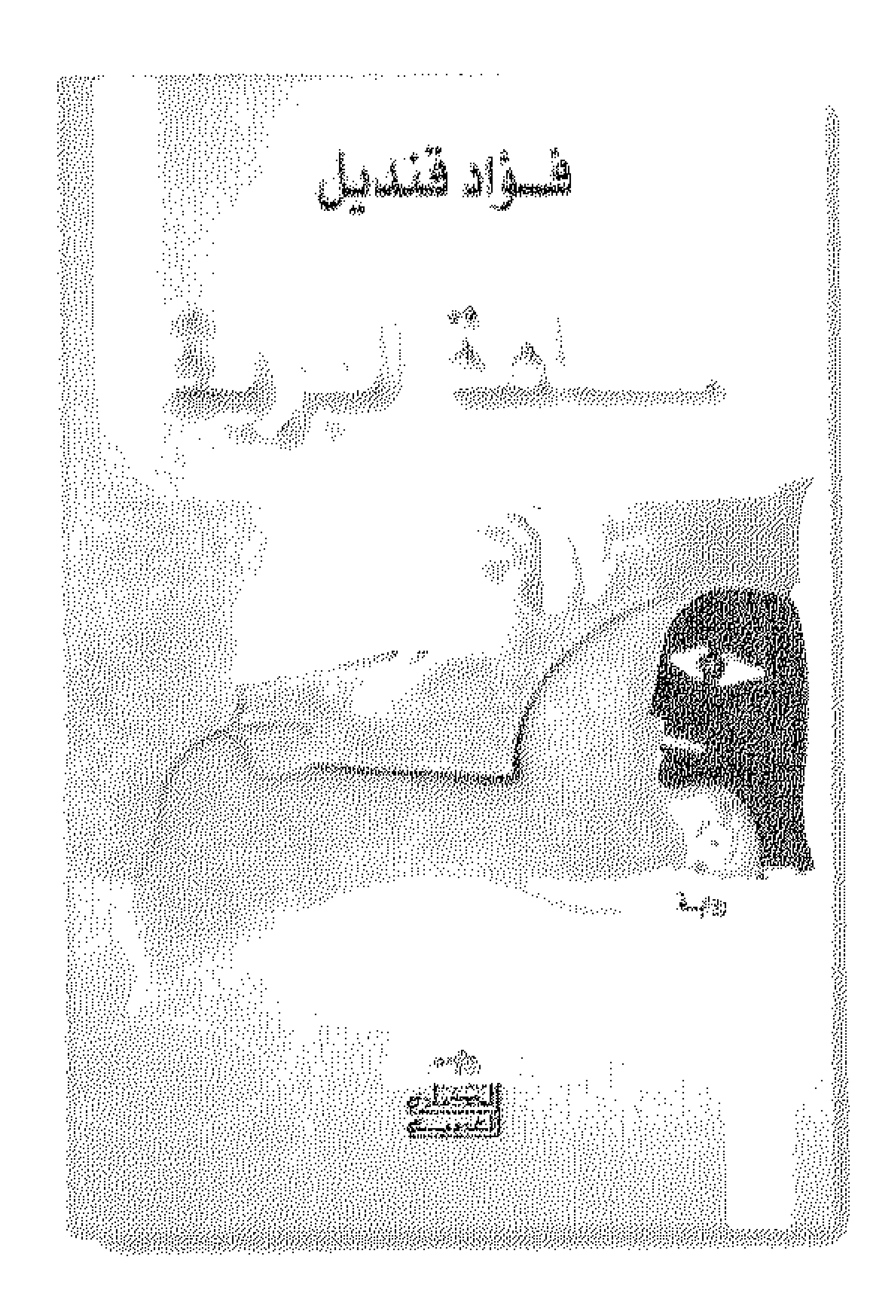
- **فؤاد قنديل**
- ولد فى ٥ / ١٠ / ١٩٤٤
- حصل على الليسانس فى الفلسفة وعلم النفس
- يكتب القصة والمقال الأدبى منذ عام ١٩٦٦ وينشر إنتاجه فى الصحف والمجلات المصرية والعربية .
- حائز على كأس أحسن كاتب قصة لعام ١٩٧٩ من جمعية القباني الأدبية .
- عضو مجلس إدارة اتحاد الكتاب .
- صدر له :

- عقدة النساء ، مجموعة قصصية ، ١٩٧٨ .
- كلام الليل ، دار الغد ، مجموعة قصصية ، ١٩٧٩ .
- أشجان ، رواية ، العربية للنشر ، ١٩٨٠ .
- الناب الأزرق ، رواية ، المطبعة الفنية ، ١٩٨١ .
- العجز ، مجموعة قصصية ، دار الهلال ،١٩٨٣ .
- السقف ، رواية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٤ .
- عشق الأخرس ، رواية ، أخبار اليوم ، ١٩٨٦ .
- موسم العنف الجميل ، رواية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٦٨٧ .
- **شفيقة وسرها الباتع**، رواية، دار الغد العربى، ١٩٨٦ .
  ط٢ مركز الحضارة العربية ٢٠٠٢ .
- نجيب محفوظ كاتب العربية الأول، دراسة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ١٩٨٨ .
- عسل الشمس، مجموعة قصصية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٠ .
- إحسان عبد القدوس عاشق الحرية، دراسة، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ١٩٩٠ .
- عصر واوا ، رواية ، دار الهلال ، ١٩٩٣ .
- بذور الغواية ، رواية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٤ .
- شدو البلابل والكبرياء ، مجموعة قصصية ، مختارات فصول ، ١٩٩٥ .
- أدب الرحلة فى التراث العربى ، دراسة ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ١٩٩٥ .
- الغندورة ، مجموعة قصصية ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ١٩٩٦ .
- روح محبات ، رواية ، المكتب المصرى للطباعة والنشر ، ١٩٩٧ .
- زهرة البستان ، مجموعة قصصية ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ١٩٩٩
- **محمد مندور شيخ النقاد**، دراسة، مركز الحضارة العربية، ط٢، ٢٠٠١ .

من قائمة الإصدارات الأدبية

العنوان	المؤلف	العنوان	المؤلف
ليلة العشق والدم	إبراهيم عبد المجيد	الممنوع من السفر	شوقي عبد الحميد
حمدان طليقا	أحمد عمر شاهين	أيام الغربة الأخيرة	صالح سعد
ملاعيب الأكابر	أحمد الشيخ	دردانين	عاشور الطويبي
سريب	أحمد الفيتورى	الدميرة	د.عبد الرحيم صديق
وقائع غرق السفينة	إدريس على	الخرابة	د.عبد الرحيم صديق
واحد ضد الجميع	إدريس على	مرسي ديله	عبد الفتاح البشتي
المبعدون	إدريس على	ليس هناك ما يبهج	عبده خال
طريق النسر	إدوار الخراط	لا أحد	عبده خال
صخور السماء	إدوار الخراط	آخر ما قاله النهر	عز الدين الأسواني
تباريح الوقائع والجنون	إدوار الخراط	صعيدي صنع	د. عزة عزت
مخلوقات الأشواق الطائرة	إدوار الخراط	سراديب	عفاف السيد
الهيش	أشرف العوضي	إيتارو	د. علي فهمي خشيم
حذاء السيد المتسي	أشرف العوضي	تحولات الجحش الذهبي ترجمة : د. علي فهمي خشيم	
همس العاشقين	أمين بكير	جنية الشفق (قصص شاعرية قصيرة جداً)	د. فاروق أوهان
حكايات من دفاتر النسوان	أمين بكير	البحر يغرق	د. فاروق أوهان
ألم يخلقها الله امرأة	أمين العزب	وجهها وطن	فاطمة يوسف العلي
أشياء خاصة جداً	أمينة العمادى	تاء مربوطة	فاطمة يوسف العلي
دنا فتدلى (من دفاتر التدوين ٢)	جمال الغيطاني	شفيقة .. وسرها الباتع	فواد قنديل
مطربة الغروب	جمال الغيطاني	الحمامة البرية	فؤاد قنديل
تكوينات الدم والتراب/الخروج عن النص	د. جمال التلاوي	لبلاد طلبت أهلها	فيصل سليم التلاوى
المتعبون	جمعة محمد جمعة	يوميات عابر سبيل	فيصل سليم التلاوى
يومية هروب	خيرى عبد الجواد	وتر مشدود	قاسم مسعد عليوة
مسالك الأحبة	خيري عبد الجواد	خبرات أنثوية	قاسم مسعد عليوة
العاشق والمعشوق	خيري عبد الجواد	أمير المدينة	ماهر أبو السعود
الحدود	رأفت سليم	حكاية ليلة طويلة	ماهر أبو السعود
اركبوا دراجاتكم	رجب سعد السيد	الفتيت المبعثر	محسن الرملي
سيرة عزبة الجسر	سعد الدين حسن	المينا الشرقية	محمد جبريل
شجرة الخلد	سعد القرش	مد الموج	محمد جبريل
شهقة	سعيد بكر	طوفان النار	محمد حافظ صالح
أيام هند	سيد الوكيل	هذيان	د. محمد حسن غانم
كف مريم	سعيد سالم	كل الأشياء الجميلة تنهار	د. محمد حسن غانم

بالإضافة إلى العديد من الكتب الأدبية ؛ رواية .. قصة .. شعر .. دراسات ونقد
وكتب متنوعة : سياسية ، قومية ، دينية ، معارف عامة ، تراث ، وأطفال .
خدمات إعلامية وثقافية





ظل واقفًا أمامها يثقب جفونها بنظراته مشتاقًا أن يرى لون عينيها.. ما هذه الحالة التى تصيب الإنسان فى لحظة ما؟.. لحظة قدرية.. موجهة ومدببة مصنوعة بحذق ومعدة بإتقان فى اتجاه محدد، ولا يستطيع أذكى أو أقوى البشر أن يحولها عن هدفها.

لم يكن قادرًا على تركها قبل أن يرى عينيها، ففيهما سوف يعثر على حريته أو عبوديته. والمهم أن يتحدد مصيره. وهى لابد كانت فى دهشة من وقفته التى طالت وأصبحت حصارًا لها ومدعاة لخجلها، وزاد عليها الحصار بإغماض العيون، ولأن صبره كان أكبر منه وخارجًا عن إرادته، فقد ظل واقفًا إلى أن عجزت وكادت تختنق فأطلق

كانت حواسه التى فى أعمق أعماق كيا
كنزًا أو شيئًا رائعًا تحت الأجفان، ووراء هذ
المعتد. وكان الأمر بالضبط كما توقع.

